دراسة نقدية

الفكر العربي:
بين عقلانية الغرب وتبعية الشرق
كيف سنواجه اللاعقلانية العربية؟

كريم الحدادي



منشورات الطيوب
سلسلة الكتاب العربي

كريم الحدادي

الفكر العربي: بين عقلانية الغرب وتبعية الشرق
كيف سنواجه اللاعقلانية العربية؟

La pensée arabe : de la rationalité occidentale à la dépendance de l’Orient:
Comment faire face à l’irrationalité arabe?

دراسة نقدية

الكتاب: الفكر العربي: بين عقلانية الغرب وتبعية الشرق- كيف سنواجه اللاعقلانية العربية؟

الكاتب: كريم الحدادي

الناشر: موقع بلد الطيوب (منشورات الطيوب)

لوحة الغلاف من أعمال الفنان العالمي بيكاسو (من اختيار الكاتب)

سلسلة الكتاب العربي 18

التصفيف والإخراج: موقع بلد الطيوب

www.tieob.com

info@tieob.com

2022

" كنت أصغي إلى اللسانيين يتحدثون بحماس وأنا بينهم لا أفهم ما يقولون. تبين لي حينئذ أنني لست مؤهلا للخوض في التنظير اللساني والأدبي، مع أنني استفدت كثيرا من علمائه وأخصائيه.

يضاف إلى هذا عجزي الواضح عن كتابة دراسة رصينة وفق المعايير الجامعية المعهودة. وبالجملة، لست قادرا على تأليف بحث مستفيض لموضوع ما في فصول متراصة البناء. كان هذا يقلقني و لم أتجاوزه إلا يوم ظهر لي أن ما كنت أعتبره عجزا يمكن أن أجعل منه الموضوع الرئيس لمؤلفاتي. ليست طريقتي في الكتابة من اختياري، ما هو شبه مؤكد أن ليس بمستطاعتي أن أكتب بطريقة أخرى، و لعل هذا هو تعريف الأسلوب، أن تظل حبيس طريقة في الكتابة."

عبد الفتاح كيليطو، في جو من الندم الفكري، منشورات المتوسط، 2020،ص.12 إيطاليا.

"لست أريد أن يرضى عني جميع الناس. فرضا الناس غاية لا تنال كما قيل في المثل القديم. حسبي أن أفتح الباب للقراء لكي يبحثوا و يتناقشوا. و الحقيقة في الواقع هي بنت البحث و المناقشة."

علي الوردي، مهزلة العقل البشري، دار كوفان للنشر، ص.07، بيروت لبنان، ط.2، 1994.

الإهداء

إلى روح المفكر الكبير

الدكتور محمد سبيلا

رحمه الله و أسكنه فسيح جناته.

شكر

يطيب لي في هذا البحث أن أتقدم بالشكر إلى كل من الفيلسوف الكبير الدكتور حسن حماد، أستاذ الفلسفة وعلم الجمال بجامعة الزقازيق بجمهورية مصر الشقيقة، الذي أرشدني كلما سألت عن قضية أو طلبت رأيه فيها. وأتذكر أنه قال لي في إحدى مراسلاتنا: "نحن نعول عليكم أنتم شبابنا في الإجابة عن الأسئلة التي أرهقتنا نحن".

كما لا أفوت الفرصة لشكر الدكتور فارس أبي صعب، مدير تحرير مركز دراسات الوحدة العربية، بلبنان، والذي كان له الفضل في نشري لجزء من هذا العمل المتواضع على موقع المركز تحت عنوان: المثقف العربي والجمهور: أين يكمن أصل الجدل؟

ونتوجه بالشكر كذلك إلى مؤسسة مؤمنون بلا حدود، التي عملت هي الأخرى على نشر جزء من هذا العمل، تحت عنوان: " إشكالية الحداثة بين عقلانية الغرب وتبعية الشرق".

كما أتقدم بالشكر إلى كل من الصديقين الصحفيين فاطمة الزهراء غالم و يوسف يعكوبي، اللذان كان لهم الفضل في نشر جزء آخر من هذا العمل، تحت عنوان: " كيف سنواجه اللاعقلانية العربية؟" على موقع مدونة زوايا.

والشكر موصول إلى كل الزملاء الذين قبلوا أن أشارك معهم بعض الأفكار والآراء المتعلقة بموضوع الحداثة والفكر العربي، وأذكر الصديق القاص والتشكيلي عثمان الهاسوتة، الصديق وأستاذ اللغة العربية، محمد بادوش، والباحث، الصديق محمد الإدريسي، أستاذ الفلسفة.

كما أتقدم بالشكر الجزيل والاعتراف بالجميل للسيد العربي أورامي، إمام مسجد ضريح " مولاي بوعزة" والذي كان له كل الفضل في مدي بمجموعة من المراجع الرصينة، خصوصا في ظل الأزمة الصحية التي أغلقت بسببها المكتبات. فكانت باب مكتبته العظيمة مفتوحا في وجهي طوال مدة البحث.

تقديم عام

بسم الله الرحمن الرحيم، و الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا، مباركا فيه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل، ومعلم البشرية وقدوتها.

وبعد، قررنا، بحول الله، أن نتطرق في هذا البحث المتواضع، لموضوع الفكر العربي، وموضوع الحداثة وما بعدها في الفكر العربي. لكن الشيء الذي منه نحن منه متأكدون، بالرغم من محاولات الإصلاح التي لا سبيل لها للبزوغ لولا "الكتابة" وفي قليل من الأحيان، نجد لها موطنا في "الفكرويات" السياسية وما إلى ذلك من مجالات الدعاية والسطو الذي تنفذه مجموعة لا متناهية من الأفكار ذات الرواد الهادفين إلى "السيطرة على العقول"[1]، هو أن مفهوم التغيير في العالم العربي يختلف اختلافا يكاد أن يتحول إلى مشكلة عويصة للإصلاح. الشيء الذي يفرض على النخبة المثقفة أن تكون على دراية كافية بما يقع في الوضوح والخفاء وبشكل وأسلوب عقلانيان يخلوان من المشادات الكلامية وسوء الفهم وهلم جرا، للتوصل إلى حلول عقلانية وسلمية.

وليس ما نقوله نابع من حقد أو كراهية، إنما هو نابع من العقل الخالص الذي انتهت مدة صلاحية غيرته عن نفسه. ذلك العقل الذي لا يعترض عن التضحية من أجل العالم، باعتباره وحدة واحدة. فنحن من دون فلسفة "القران الكريم" لا شيء، ومن دون "الأدب" لا شيء أيضا، ومن دون العلماء، هؤلاء الذين نتكئ عليهم والاتكاء عليه عز وجل، لما سرنا على درب العلم الذي هو درب الهدى ودرب اليقين الذي لا يفقه في بنيته شيئا سوى اللبيب.

وبعد، لا بد من الاعتراف بأن العالم شهد أحداثا أكثر دمارا على مر التاريخ ومنذ فجر البشرية. والحياة بصفة عامة، كما قال بذلك "الدكتور علي الوردي"، ليس فيها عهدا يخلو من المساوئ

[1] إن تضليل عقول البشر هو، على حد قول "باولو فرير"، أداة للقهر. فهو يمثل إحدى الأدوات التي تسعى النخبة من خلالها إلى تطويع الجماهير لأهدافها الخاصة. كتاب: المتلاعبون بالعقول ،هربرت، أ.شللر، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، مارس، 1999، ص.5-6.

والأزمات، ولعل هذه أبرز سماتها. والظاهر أن "هذه الأزمات والمساوئ هي من صنع الإنسان، وناتجة لا محال عن سوء وجوده وسوء تدبيره للأمور."[2]

حتى إن الله عز وجل، أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، تكريما له؛ «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ»[3]. وفي ذلك حكمة إلهية عظمى، تبرز القيمة التي منحها الله تعالى لبني ادم، حتى يحمد ويشكر ويكون من المتقين، ولكيلا يزيغ عن طريق الصواب، طريق الحق والتقوى والعدل. وهو طريق لن يؤدي في آخر المطاف إلا إلى الخير، مصداقا لقوله تعالى: "هوَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ وَكانَ عَرشُهُ عَلَى الماءِ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلاً"[4]، إبرازا لكون الخير لا يؤدي إلا إلى الخير، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: *" إن الخير لا يأتي إلا بخير أو خير هو؟"*[5] وبأن العمل الصالح وتقوى الله وخشيته هو الغاية والهدف الأسمى والأعظم من وجود الإنسان، وهو أساس وجوده على الأرض، والإنسان هو خليفة الله فيها.

لذا فلا يمكن تصور الشر إلا كدليل على وجوب الخير وأحقيته، مصداقا لقوله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ."[6]

وبالتالي فوجود الأزمات والمساوئ، أي الشر، هو دليل قاطع على وجود خلل في المنظومة البشرية. والحديث عن المنظومة البشرية هو الحديث عن العقل البشري. فـ"الموجود العاقل لا يستطيع أن يختار أحد الممكنات إلا إذا وجدها أحسن وأسمى وأوفق من غيرها "[7].

إلا أن الأمر قد يستعصي عليه -الموجود العاقل- ثم يذهب عكس ما يجب أن يكون، ليحقق به ما وجب تحقيقه عن طريق العكس. فالإنسان يدعي أنه يهدف إلى تحقيق السلام، لكن عن طريق الحروب. حتى إن هناك من الجامعيين الذين يدخلون ضمن دائرة "المثقفين التقليدين" حسب

---

[2] يقول ساند دزدار في كتابه " العقل زينة، أزمة الحداثة في الوطن العربي" الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1، فبراير، 2017، ص.12: إن "كل المشاكل التي نمر بها هي من صنع البشر، و لا يمكن حلها إلا من قبل البشر."

[3] سورة البقرة، الآية 34.

[4] سورة هود، الآية 7.

[5] د. سمير، حميد، نموذج الحداثة و ما بعدها في الفكر العربي الحديث، قراءة نقدية، تكوين للدراسات و الأبحاث، 2017، ص.7.

[6] سورة الحجرات، الاية،13.

[7] سعيد، جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية. ص. 245.

تصنيف جراشي"؛ هناك منهم من يهدف إلى تحطيم طالب أو طالبة نفسيا ويجد في ذلك راحة لا تصفها الكلمات، تحت شعار، هو لا يهدف إلى تحقيق ما يجب تحقيقه حتى بالطريقة العكسية الخاطئة، فما بالك أن يتم الصواب؟

إن الإنسان لمسؤول عن الشر الذي يقع في العالم. ولا يوجد حاليا وعلميا وعمليا، حتى لا ندخل خانات الترهات واللغو، كائنات بذكائه. فهو الذي حول العالم إلى نظام واحد وطور وسائل النقل، واخترع الحاسوب، وأوجد اللقاح، وسهل الحياة، وهو الذي دمر "الأوزون" وقتل الأبرياء ودمر الغابات، هو الذي قتل الحوت ولطخ المحيط. ولا زال اليوم يطمح، بدون خجل، إلى "حرب ثالثة".

لا مفر للإنسان من تهمة تخريب العالم. خارقا بذلك ما نص عليه المولى عز وجل في كتابه الجليل: " ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها."[8] صدق الله مولانا العظيم.

ناهيك عن ذلك، تستمر لامبالاة الإنسان تجاه مشاكل الحرب والسلم العالميين، والمشاكل البيئية المترتبة عن ذلك. فما الدافع إلى ممارسة الحرب أصلا؟ أليست الحرب ضربا من ضروب "الانحطاط الفكري"[9] ؟ أليست الحرب جريمة؟ "انتحار جذريا؟" لماذا توقفت الحرب في الغرب ولازالت تقتل العرب في الشرق والمسلمين في "أفغانستان" و "العراق" و "فلسطين" و "لبنان" و"سوريا" ولماذا نحن؟

كريم الحدادي، مولاي بوعزة، في 21 يونيو، 2020.

---

[8] سورة الأعراف، الآية 56.

[9] EL HADDADY, Karim, Philosophie de la guerre : A la recherche d'une paix universelle, Editions Edilivre, 2020.

تمهيد

لماذا تقدم الغرب وتأخر العرب؟ هل تأخر العرب فعلا؟ كيف تم ذلك؟ وما السبب الذي جعل بعض النقاد الغربيين، يصفون العرب بالتخلف و "القصور الفكري"[10] ؟ كيف وصل وضع العرب إلى هذا الحال، الحالة المثيرة للشفقة تارة والمثيرة للسؤال الأبدي التالي تارة أخرى: لماذا تأخر العرب؟

لماذا سارعوا إلى الغرب من أجل استيراد "الحياة" و "المستقبل" و "الحب" أيضا؟ لماذا تحتاج جامعاتنا – العربية - إلى ترجمة الأبحاث والدراسات والنظريات الغربية الجديدة عوض أن يحصل العكس أو يحصل العكس "بغير مصداقية"[11]؟

لماذا كل هذه الدهشة التي نبديها نحن العرب تجاه الحضارات الغربية؟ لما كل هذه الفوضى وهذا التهافت نحو ثقافة المركز؟ أو الشمال، حتى نلقي السلام على "عنوان رواية سلطان الأدباء العرب – *الطيب صالح* -وعنوانه: موسم الهجرة إلى الشمال. لنشد الرحال صوب الهامش أو الجنوب، حيث سنسائل "مفكريه" و "مثقفيه" و "نقاده"، ونقول بغرابة: كيف سمحتم بحدوث ذلك؟ أ أنتم نائمون؟

لعل الباحث في مجال الفلسفة أو الدين أو العلوم الإنسانية برمتها، قد طرح مثل هذه التساؤلات تكرارا. لكننا سنحاول، بناء على ما قيل و تم التنظير له، بل و تبنيه في بعض الأحيان، إلقاء الضوء، بالاستناد إلى اعترافات التاريخ و صراعاته و فلسفته بصيغة أكثر موضوعية و في غنى عن أي هاجس أو محرك أيديولوجي - اعتبارا لعمل الدعوات الأيديولوجية على "تجاوز التناقضات و خلق الوفاق"[12]- أو دخيل عن الفلسفة - اعتبارا لأنها منافية "للأيديولوجية"، و

---

[10] وهبة، مراد، الفلسفة في مؤتمرات، مكتبة الأنجلومصرية، 1994،ص.185.

[11] نقصد هنا ب"المستشرقين" المفكرين الذين حاولوا لعب دور الوساطة بين العرب المسلمين و موروثهم الثقافي،إلا أن وساطتهم هاته كانت أكثر إقصاء و أكثر تلاعبا بالحقيقة العقلية، و ذلك لكونهم لا ينتمون للثقافة العربية الإسلامية إذا صحت وجهة نظر الجابري.-تكوين العقل العربي، ص.16.

[12] بن عبد العالي، عبد السلام، الفلسفة أداة للحوار، دار توبقال، ط1، 2011، ص.9.

تسعى إلى تحقيق العكس، أي "الكشف عن الاختلاف في ما وراء الائتلاف، و عن التعدد في ما وراء الوحدة، - [إن] الفلسفة تشتت و تفرق، إنها إستراتيجية لتكريس الانفصال، و سعي وراء إحداث الفجوات في ما يبدو متصلا، و خلق الفراغ في ما يبدو ممتلئا، و زرع الشك في ما يبدو بديهيا و توليد "البارا دوكس" في ما يعمل دكسا[13]- و باعتماد الفكر البناء الهادف إلى التغيير البناء و الايجابي و العقلاني، إن صح القول، سنحاول إلقاء الضوء على بعض من أسباب و دوافع "تأخر العرب المسلمين و تقدم الغرب"[14].

والحال إننا لا نسعى إلى جرد بعض المعطيات والاقتباسات الفلسفية، التي هي بدون منازع، ثمرة لجهود فكرية، بذلها ثلة من المفكرين الغيورين عن القومية العربية وعن الدين الإسلامي، الذي يهاجم من حين إلى حين، أمام عقول "جماهيرية"، هي لا تفقه فيما يقع شيئا، ولا تفعل شيئا سوى كتابة بعض "التغريدات" على مواقع التواصل الاجتماعي تارة، أو الالتزام بكل هدوء بـ "الصمت" تارة أخرى.

لقد ساءت حالة أمتنا، حتى إننا أصبحنا نرى أناسا صحفيين وهم غير ذلك. أناسا أطباء وهم غير ذلك، أساتذة ومعلمين ومثقفين، أيضا. وإننا لم نقتبس ولم نقرأ إلا احتراما لمن أفنوا حياتهم مناضلين ومدافعين عن أوطانهم وأمتهم ودينهم. الذين تنازلوا عن الغالي والنفيس- ومن لا يذكر عبد الرحمان الكواكبي والمهدي المنجرة والأفغاني؟ - من أجل التفرغ للكتابة والعمل معا، تطبيقا لمبادئ العقل البناء، الذي يفرض التضحية وسهر الليالي، بغية خدمة الوطن والأمة وتعليم أبنائها ونشر الوعي في أرجائها. فـ"الوعي، عادة، لا يتوفر إلا بنشر الثقافة"[15].

لكن، يبدو مفاد أسطورة "سيزيف" أقرب إلى الواقع، قرب الشمس من الأرض. فالشمس قريبة بالنسبة لسكان الأرض العاديين، بينما يراها الفلكيون والفيزيائيون، بعيدة كل البعد عنا، لحسن حظنا. وقرابة الشمس هي قرابة وهمية محكومة بالمعرفة. وتصبح هذه المعرفة لدى البعض، حقيقة يقينية أساسها العلم الذي أساسه العقل. ولدى البعض وهما أساسه وهم. فإذا كان "سيزيف" ضحية لأنه ارتكب جرما أو خطيئة، فهناك من هم أبرياء تماما، لكنهم يعتبرون ضحايا للجهل. وما الأخطر من ذلك؟

---

13 عبد السلام بنعبد العالي، الفلسفة أداة للحوار، دار توبقال ،2011.ط1..ص.9/87.

14 أرسلان، شكيب، لماذا تأخر المسلمون؟ الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

15 الكواكبي، عبد الرحمان، طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد، دار النفائس،ط3، 2006، ص.20.

إن حال الأمة العربية هو تماما حال "سيزيف" المسكين! ولعل هذه هي الإشكالية الرئيسية التي سنحاول الوقوف على حاشيتها، متسائلين عن جوهرها، آملين بذلك - بكل صدق وغيرة نابعة من الحب الذي لا تكاد تصفه "اللغة"، باعتبار كل حيثياتها الجمالية وتعابيرها المجازية، عن مدى إخلاصنا للقومية العربية وعن العناء والأرق الذي سببه لنا "الانتظار"، انتظار شروق شمس المجد داخل الأرض العربية الإسلامية، - للإسهام في إيجاد حل للأزمة التي تعيشها الأمة العربية الإسلامية في شتى ميادين الحياة المجتمعية، من تعليم وصحة وفكر ومجتمع.

من أجل التوصل إلى ذلك، عدنا إلى الوراء حتى نفتش وننبش عن سؤال كان أن سمي بـ "سؤال النهضة"، ذلك الذي طرحه المفكر السوري الكبير، والفيلسوف العربي الغيور عن الأمة العربية وأحوالها، شكيب أرسلان"[16]وهو عنوان لكتاب كان قد صدره عام.1940 حيث أراد من خلاله نقد الواقع العربي المنكسر، خصوصا بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، والتي كان "أرسلان" من بين المدافعين عنها.

وسنحاول تسليط الضوء، في هذه الدراسة المتواضعة، على بعض من أسباب تأخر العرب المسلمين، وعن مجموعة من القضايا الأخرى المساهمة في هذه الأزمة الفكرية التي تعيشها أمتنا منذ قرون، من قبيل "الاستعمار" والاستشراق"، و "قضية الوحدة العربية"، و "إشكالية النص القرآني"، الذي يعتبره البعض سببا من أسباب "الانسداد التاريخي" الذي عرفه العالم العربي الإسلامي".

وقد قسمنا العمل إلى سبعة فصول، حتى يسهل علينا تفصيل إشكاليتنا. في الفصل الأول: هوس و "سكيزوفرينيا" الحداثة بين الشرق والغرب"، سنحاول إلقاء الضوء على بعض المفاهيم المتداولة، كمفهوم "الحداثة" و "التحديث"، مع إبراز الفرق بينهما، والفرق بين تصور المثقف الغربي لهما وتصور المثقف العربي الإسلامي من جهة ثانية. وسنوضح أن "التقليد" الذي أبداه المفكر العربي والمجتمع كذلك، تجاه "الحضارة" الغربية ومنجزاتها و "حداثتها"، يشكل ضربا من ضروب القصور الفكري والتبعية "اللا مشروطة" للغرب، خصوصا وأن الحضارة الأوروبية أصبحت هي نفسها تعيش اضطرابات في ذاتيتها، بابتعادها عن كل ما هو روحي، وبتقديسها للمادي.

---

[16] الميلاد، زكي، سؤال النهضة والنقد العربي المعاصر، النسق الأول، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، يوليو، 2014.

في الفصل الثاني، الموسوم بـ " العقلانية الغربية و تجليات النجاح النسبي"، سنحاول إبراز الجانبين، المحمود و المذموم، داخل الحضارة الغربية، التي تدعي "الحداثة" و "التقدم" و "الرقي"، مهملة ماضيها الكئيب و المليء أرشيفه بالنقاط السوداء، كالاستعمار الذي طال دول "الجنوب"، و المذابح الجماعية التي نفذتها الكنيسة قبل "سطالين" و هيتلر"، و بالتالي، فالنجاح الذي حققه الغرب نسبي، و لا يجدر بأي عقل كان، أي يتبنى نموذجه – الغرب- الحداثي بكل تفاصيله، لأن في ذلك "تقليدا أعمى" و طمسا للهوية، و تكسيرا للأسس التي بنيت عليها الحضارة العربية و الإسلامية.

في الفصل الثالث، سنتناول إشكالية التغيير في العالم العربي، بعنوان عريض جمع كالآتي: " إشكالية التغيير في الفكر العربي". سنحاول في هذا الفصل، "محاسبة" المفكر العربي، ولومه عن عجزه عن تكوين عقل عربي، وعن العمل وفقا لما يمليه العقل "العربي الإسلامي" بطرق تتماشى مع ما توصل إليه العلم الحديث وعن مدى تأثيره على العالم، في ظل السياسات الدولية وتداعيات " العالم الجديد".

في الفصل الرابع، الموسوم بـ " الاستشراق: بداية عرقلة عجلة الفكر العربي." سنتطرق إلى موضوع "الاستشراق" باعتباره حركة فكرية قادها ويقودها مفكرون ورجال سياسة ودين، "ينتمون" إلى الثقافة الغربية، لكن أخذهم الفضول و "أشياء أخرى" إلى الانكباب على تأويل "الثقافة العربية الإسلامية"، النص القرآني" وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية منذ بداياتها. إذ أن "المستشرقين" لعبوا دور وساطة غير جدير بـ"الاحترام" مبدئيا، بالرغم من إننا سنوضح إلى أي حد يعتبر عمل المستشرقين، جائزا. كما سنتحدث في نفس الصدد، عن تأثير "الاستعمار" على الواقع العربي، وعن حقيقة خطاباته "السفسطائية" التي لم تزد طين المجتمعات العربية إلا بلة.

في الفصل الخامس، الموسوم بـ " المثقف والجمهور: أين يكمن أصل الجدل؟" سنتناول موضوع المثقف أو المفكر، باعتباره إنسانا هدفه الأسمى هو الحرص على مسائلة ونقد واقعه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأخلاقي... من أجل المضي به قدما وتجاوز المحن والأزمات التي تعرقل، بدون شك، عجلة الفكر وتؤدي في غالب الأحيان إلى ما سماه الدكتور "محمد سبيلا" "انتحارا حضاريا"[17]. والمثقف إنسان وصل إلى درجة من درجات الوعي بالوجود، تدفعه إلى نقل ومشاركة

17 سبيلا، محمد، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، 2009، ص.149.

علمه ومعرفته مع "العامة" أو الجماهير "حتى نعيد عبارة "غوستاف لوبون"[18]. لكن "تغيير الجمهور يقتضي تغيير مستوى الخطاب"[19] لأنه غالبا ما يعيش الطرفين في تنافر وتباعد وبالتالي، لا بد أننا سنتساءل في هذا الفصل عن معنى "المثقف" وعن دوره في المجتمع العربي الإسلامي.

في الفصل السادس: "وصف حالة الهستيريا العربية في التعاطي للتغريب" سنحاول تسليط الضوء عن بعض الأسباب التي دفعت وتدفع بالمجتمعات العربية إلى الإشادة بـ "النموذج الحداثي" الغربي، على اعتبار أنه "الحداثة" بحذافيرها. حتى إن تيار الحداثة العربية، خاصة بعد هزيمة حزيران 1967، دفعت هذا التيار- تيار الحداثة العربية- إلى أن " يتنازل عن كل شيء، عن هويته وقيمته ويستعير النموذج الحداثي الغربي بسلبياته وإيجابياته"[20]. وسنحاول أن نوضح، على مستوى هذا الفصل كيف يمكن للنقد الذاتي في الفكر العربي، أن يلعب دورا حجاجيا في التصدي لعدائية بعض التيارات الغربية.

أما في الفصل السابع والأخير، والموسوم بـ " كيف سنواجه اللاعقلانية العربية؟" فسنحاول الكشف عن دور "المؤتمرات الفلسفية" عبر العالم، في الإسهام في إيجاد حلول "عقلانية" للمشاكل التي ترهق العالم، كالحروب، التي توقفت بسببها لمرتين المؤتمرات الفلسفية، والمشاكل الثقافية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية. والحديث عن المؤتمرات الفلسفية هو الحديث عن "الفلسفة". مما سيفرض علينا إبراز مدى قدرة الفلسفة على عقلنة الوجود الإنساني. بالمقابل، سنحاول تسليط الضوء على تأثير بعض الأنظمة الاجتماعية والسياسية - "العلمانية نموذجا"- على الحياة الاجتماعية والأخلاقية داخل الثقافة العربية الإسلامية. كما سنكشف عن بعض محددات "العلة" الشعورية التي يشهدها الإنسان العربي المسلم.

ونسأل الله أن يوفقنا وأن يجعل بإذنه هذا العمل المتواضع بداية للوعي بضرورة النهوض بالفكر في الجامعات والمجتمعات العربية الإسلامية، خصوصا الفكر الإسلامي واللغة العربية واللغات الأجنبية والتاريخ و"الفلسفة" والترجمة[21]؛ وهي مرتكزات نرى في الاهتمام الجدي والمنظم بها،

---

[18] لوبون، غوستاف، سيكولوجية الجماهير،ترجمة صالح،. دار الساقي، 1991.

[19] سعيد، إدوارد، المثقف و السلطة، ترجمة و تقديم، الدكتور"محمد عناني".رؤية للنشر و التوزيع، 2006، ص.14.

[20] سمير، حميد، نموذج الحداثة و ما بعدها في الفكر العربي الحديث، ص.19

[21] " التخطيط المؤسسي لفعل الترجمة ضروري لمعرفة الذات و تمثل الاخر" ؛ حوار مع المترجم المغربي نبيل موميد، مجلة المحطة، 30 شتنبر،2021, من الضروري أن ندرك، أولا، أن الترجمة من لغات أخرى إلى العربية (التعريب) تبقى ضعيفة في الوقت الراهن رغم كل ما نراه من ترجمات تصدر هنا وهناك. ودعني أخبرك ببعض الأرقام التي لا ريب أنها ستثير اهتمامك، إن لم

طريقا لتخليص المجتمعات العربية الإسلامية من خروجها المتواصل عن "الصواب"، أي عن مبادئ الدين الإسلامي وعن تاريخ المسلمين، علماء ومفكرين ورياضيين وفلاسفة، كانوا في وقت مضى، رواد الفكر والمعرفة والدين، في المقام الأول.

لذلك، رأينا في "المنهج التاريخي"، سبيلا أكثر فعالية لمعالجة إشكاليتنا، لما يوفره للباحث من وسائل ووسائط وحجج، تكفي في حال تنظيمها "كرونولوجيا" للوصول إلى رؤية أو رؤى جديدة، ربما تصلح في حال تنفيذها والالتزام بتحويلها من الشق النظري إلى الشق التطبيقي والممارسة المعقلنة، لإقناع الرأي العام العربي، وكذلك الغربي، بحقيقة الإسلام والعرب وغير العرب المسلمين، سواء في مجال الفكر أو العلوم أو الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

لمحة عن "المنهج التاريخي":

إن تاريخ وماضي البشرية لمصدر إلهام وخبرة، لطالما أكد عليها القران الكريم والسنة النبوية الشريفة، قبل نظريات ومناهج كبار المفكرين والمؤرخين. والبحث العلمي بصفة عامة، كان وأصبح ضرورة لا معنى في الهروب منها أو التنكر لها وفقا لسبب أو لآخر. خاصة وأنه ثمة "ضرورة ثقافية دائمة في مواكبة مستجدات الفكر والثقافة ومسألة مسائل المعرفة السائدة، لأن في عملية المواكبة قدرة مستديمة لاكتشاف الجديد المعرفي واستيعاب أحدث الأفكار المتداولة في المشهد الثقافي الإنساني"[22].

ولا شك في أن التاريخ يمدنا بوقائع وأحداث لم ولن يتسنى لنا معرفتها في غياب التاريخ والمؤرخين. لذلك، يبدو أن "الاقتصار على الحاضر، يعني خسارة كل تجارب أسلافنا. لأن الحاضر لا يشكل سوى نتيجة، أو امتدادا لممارساتهم في جميع المجالات. لهذا، ومن أجل الإحاطة بشكل جيد بـ "لفظ" أو "مفهوم" معين، يستحسن العودة إلى أصوله حتى نفهم أبعاده، بنياته، رواده..."[23].

تثر دهشتك، فحسب إحصائيات اليونسكو لسنة 2016، لم يترجم العرب عن بكرة أبيهم منذ عصر "المأمون" سوى عشرة آلاف كتاب، وهو يعادل ما تترجمه إسبانيا لوحدها في سنة واحدة؛ هل تدرك حجم الكارثة؟! فإذا كان الأمر هكذا بالنسبة إلى التعريب، فكيف ستكون حركة نقل الثقافة العربية إلى لغات أخرى (التعجيم)؟ لا شك أنها ستكون ضعيفة وهزيلة للغاية؛ وجولة بسيطة بين رفوف المكتبات ستؤكد لك هذا الأمر."

[22] مجلة الكلمة، العدد- 85 ، منتدى الكلمة للدراسات و الأبحاث،.مؤسسة التاريخ للطباعة والنشر والتجارة 2014 ، ص.5.

[23] Qotb, Hani, vers une didactique du français sur objectifs spécifiques, Université Montpellier III, 2007, p.23.

وبهذا يتضح لنا بأن المنهج التاريخي، الذي يهدف إلى " جمع الحقائق وتصنيفها وتنظيرها وربطها بموضوع الدراسة الذي يريد بحثه والتخصص به"[24]، أنه قادر على رصد عيوب أو محامد الظاهرة المراد دراستها وفقا لماضيها ومراحل تطورها وحضورها باعتبار اختلاف وتعدد السياقات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والتاريخ يشهد على تاريخ "الحضارة العربية الإسلامية"، في مساوئها ومحاسنها، في ماضيها البعيد والقريب، وحاضرها المتأزم، ومستقبلها المبهم والمغطى بالغيوم من كل الجوانب. ولعل ما يمكن أن يضمن فهما جريئا ومفصلا لأي موضوع كان، هو قدرة الباحث على تتبع مراحل نشأته ومحدداتها، وإخضاعها للملاحظة والقراءة والنقد والمسائلة. الشيء الذي يبدو "عقلانيا" وضروريا داخل المنهج التاريخي، فهو يوفر ذلك.

والحديث عن التاريخ والماضي، هو الحديث عن "التقاليد" و "التراث".

إن التراث جذور الحاضر والمستقبل، وخلاصة كفاح طويل وتجارب كثيرة فيها الايجابي والسلبي، والنافع وغير النافع. التراث هو الوعاء الفكري والأدبي والحضاري للأمة، منه تستمد قيمها الأخلاقية والفكرية ومقومات بنائها الحضاري، ومكونات شخصيتها وهويتها بين الأمم والشعوب الحية التي لا ترضى التحرك في حاضرها ولا السير نحو مستقبلها وهي تهمل وتقطع صلتها به وتذوب في ثقافات أخرى أو تتبنى قيما غريبة عنها."[25]

ونسأل الله تعالى ألا نكون قد فرطنا في الالتزام بضوابط وخطوط "المنهج التاريخي" العريضة، وإن كان الأمر كذلك كما قال الدكتور حسين الحاج حسن، إن المنهج التاريخي، "إذا فقد فيه صاحبه توازنه، زلت به قدمه واختل ميزانه وصار النص [...]لديه مادة التاريخ ولم يصر التاريخ مادة للنقد"[26]، فلتكن هذه محاولاتنا المحتشمة في مجال "النقد" وبالضبط، نقد الفكر العربي.

---

24 إحسان، محمد، الحسن، مناهج البحث الاجتماعي، دار وائل للنشر، عمان، الأردن،2005، ص.75.

25 فارح، عبد الفتاح ، البحث العلمي في التراث الإسلامي. مطبعة وراقة بلال، 2013.ص.7.

26 حسين، الحاج، حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط 1، بيروت، لبنان، 1996، ص.63.

الفصل الأول

هوس و"سكيزوفرينيا الحداثة"

بين الغرب والشرق

هوس و "سكيزوفرينيا الحداثة"

بين الغرب والشرق

جدلية "التحديث" و "الحداثة"

لقد أصبح الحديث عن التطور والحداثة والتقنية إلزامية العصر. وهذه الظاهرة لها جذورها التاريخية، ولعل هذا ما يشفع لنا باختراق معيار الزمن، حتى نتمكن من العودة به إلى حيث نشاء، راجين بذلك تكوين صورة أكثر وضوحا، عما يشكل موضوع دراستنا. لأن التاريخ - كما قال محمود عوض، يخبرنا بأن "*كل الانجازات الرائعة في حياتنا الآن، تمت بفضل أناس تمردوا في الماضي*"[27]. أي أن الحاضر، بناء على هذا القول، ما هو إلا نتيجة للماضي!

وبالتالي، فسبب الحروب وبداياتها، هي في الواقع تمت في الماضي. وهذا العمران الجذاب، الجميل، الدال على الفن وبفن، الفريد، الذي يحمل في طياته ذهنية وثقافة الإنسان الذي عاش في حقبة زمنية تختلف بل وتخالف حقبتنا، ينتمي بدوره إلى عصور ليس لنا ولم يكن لنا فيها شأن أو قرار.

هذا "الكل شيء" الذي لم يكن لنا في وجوده دخل أو تأثير، هذا النتاج الذي أنتجه غيرنا، ربما أهلنا أو أهل أهلنا أو غيرهم، ليس لنا فيه دخل. لكن، ما الحاضر بدون ماضي؟ بمعنى آخر، كيف يمكن لإنسان لا يعرف عن ماضيه شيئا أن يكون ذو تأثير إيجابي على صنع مستقبله؟

على سبيل المثال، وحتى نكون أكثر دقة نحيلكم على كتاب الدكتور "عباس محمود العقاد" الموسوم بـ " أثر العرب في الحضارة الأوروبية"[28] والذي يوضح فيه بكل أكاديمية ودقة تاريخية، كيف ساهم العرب المسلمون في نشأة وتطور الغرب. وكان أن تأثروا بهم بل نقلوا علمهم ونظرياتهم وأدبهم وترجماتهم، إلى مختبراتهم، فكان أن تمكنوا من المضي قدما، مؤسسين بذلك مدارسهم وجامعاتهم التي ارتادها ويرتادها أعظم مفكرينا، واستطاعوا إلى حد ما، تأسيس مجتمع

---

27 عوض، محمود، متمردون لوجه الله. دار الشروق، 1981.ط.1.

28 العقاد، عباس، محمود، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، شتنبر، 2005.

غربي، كان عليه أن يكون كما هو؛ وشاءت الظروف أن يتطور طبقا لقوانينه ولرؤيته، والأهم هو ماضيه. لقد استفاد الغرب من ماضيه وماضي الشعوب التي استنزف ثرواتها، استفادة مجدية ظاهرة وبجلاء. كما أننا " لا نريد هنا التأكيد على تأثير ابن سينا وابن الهيثم والبيروني وابن رشد في الثقافة اللاتينية عامة وفي تكوين العقل العلمي خاصة. تلك أطروحات أصبحت اليوم من المسلمات بعد الدراسات التاريخية والعلمية المتعددة في الشرق والغرب."[29]

فإذا ألقينا نظرة عن بعد، عن أوربا أو أمريكا، هذا ما سنقوله وما قاله الكثيرون:

" إن الغرب لبلاد الخير. إنهم يطعمون حتى الحيوان. إنهم ديمقراطيون. يحبون الخير. ملتزمون. يعطون الحقوق لأصحابها. يخافون على الفرد والمجتمع. يرعون المهاجر والضعيف والفقير. إنهم شعب طيب وكل ما ينقصهم هو الإيمان بالله." هكذا نكون قد قلنا القليل مما قيل والقليل مما نعرف أيضا.

ولعل هذه النظرة عن بعد، دليل واضح على أن الحضارة الغربية حضارة شامخة، لابد من الاعتراف بذلك من ناحية؛ فإذا ما ألقينا النظر على الفلسفة سنجد تاريخا فلسفيا "إغريقيا" و "بريطانيا" و "فرنسيا" و "أمريكيا"؛ وإذا ما اتجهنا صوب العلوم سنجد من الفيزيائيين والاقتصاديين من أفنى حياته في سبيل العلم، وكانت النتائج واضحة. فإذا غضبنا النظر عن الماضي الغربي اليائس، أي الكنيسة وتوابعها من جهة، والمادية العميقة (أو السائلة على حد تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري) التي أصبح يعيشها المجتمع الغربي من جهة ثانية وليست أخيرة، فسنجد أنها حضارة شامخة فعلا.

لكن، إذا كان الأمر كذلك في أوربا، على سبيل المثال، فهو ليس كذلك في البلاد العربية. حيث سنتطاول على قول "عوض"، لنحرفه ونقول:

" إن التاريخ يخبرنا بأن كل النكسات والأزمات القاسية في حياتنا الآن، تمت بسبب أناس تمردوا على ثقافتهم ولغتهم في الماضي". إذ يقول في هذا الصدد الفيلسوف الكندي توما وكوناك: " حتى اللغات الأم التي تشكل مع ذلك، بالنسبة لكل واحد، النفاذ الأول إلى اللغة وهي بامتياز مكان التفكير الناقد وبالتالي الفكر..."[30] تم إفقارها وتهميشها. ونقول هذا حتى لا نجري مهرولين

[29] المسيري، عبد الوهاب و فتحي التريكي، الحداثة و ما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، ط 3، 2010. ص.212.

[30] دوكونانك، توما، الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ص,38-39.

ومتخذين من "الاستعمار" و "الهزائم "[31] حجة قطعية، وملقين اللوم عليه من كل الجوانب ولا يهمنا ما بداخلنا وما بطيات كتبنا وفكرنا وثقافاتنا.

إذا كان الغرب قد حقق من الإنجازات ما يشفع له بوصف نفسه ب"الحداثي"؛ إذا كانت النهضة الأوربية و فكر الأنوار و إنتاجات فلاسفته و مثقفيه، قد اتجهت "لنقد السلطة الدينية و السياسية"[32] باعتبار الوضع المحرج و- المتخلف حتى نكون أكثر موضوعية- الذي كانت تترأسه الكنيسة آنذاك، و باعتبار "حروب الأديان"[33] أو ما يسمى ب"الحروب الصليبية"، التي كانت من أقوى المعارك الفعلية و الأيديولوجية بأوروبا، و التي دارت بين "الكاثوليك" و "البروتستانت"، بالاستناد إلى الحربين العالميتين الأولى و الثانية، بما في ذلك المجازر و المذابح و الشطط في السلطة- الشيء الذي قد دفع "مارثن لوثر"[34] لقيادة حركة الإصلاح الديني، واعيا بذلك كمفكر و كرجل دين، رأى في محيطه نوعا من "الانحطاط" و "التدني" و "الرجعية" و "العنف" و "اللامعقول"، فاندفع إلى الإصلاح و لولا اندفاعه لظلت أوربا غارقة في الظلمات - فبإمكاننا القول بأن الحضارة الغربية لها هي الأخرى مساوئها. لكن يظل السؤال المطروح هو كالآتي:

ماذا فعل المثقف العربي حتى ينهض بأمته؟

التحديث

لا شك في أن هذه الصراعات آنفة الذكر، موجودة لا محال في عصرنا هذا، وبالتالي فالغرب لم يحقق المثالية التي نادى بها "توماس مور" ورفاقه، ولم يحقق العدالة الاجتماعية، بل لم يفهم معنى الحداثة بعد، ما دام أنه ينظر إلى التقاليد أو الإرث باحتقار وحيرة، و لا يزال يتردد في انتقاء الايجابي منه وترك غير الايجابي، " ما ينبغي أن يؤخذ من هذا التراث وماذا ينبغي أن يترك؟"[35]

---

[31] "بعد انهيار الامبراطورية اليابانية على إثر انهزامها في الحرب العالمية الثانية سنة 1945، لم تضيع الوقت في ندب الحظ او في التحسر عل ما فات، بل إنها وضعت برنامجا يقوم على ترجمة مائتي ألف كتاب في فترة زمنية محددة، و في المجالات العلمية و التقنية، و من مختلف لغات الأرض لا سيما اللغات الأوروبية و كذا الأمريكية. نبيل موميد، مجلة المحطة، مرجع سابق الذكر.

[32] د. مراد وهبة، الفلسفة في مؤتمرات، 1994، ص.187.

[33] هاشم صالح، الانسداد التاريخي، ص.9.

[34] معظم المؤرخين متفقون على القول بأنه لولا تردي المسيحية في القرون الوسطى إلى أسفل وهدة و لولا جفاف نسغها و تحولها إلى قوالب جامدة فاقدة للروح،لما كان انفجار لوثر وولادة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر. د.هاشم صالح، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ ص.8/327.

[35] طرابيشي، جورج، مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقي، 2012، ص،14.

فالغرب حتما لم يحقق الحداثة، بل أضحى يخلط بين الحداثة modernisme والتحديث *modernisation*.

بحيث أن التحديث يعني: " التصنيع والبنية المهنية المعقدة والزيادة في الثروات ومحو الأمية والتوسع في المدن، و"التغريب" أو "الحداثة الغربية" باعتبارها نموذجا للتحديث الغربي. لكن التجارب بينت أن "التحديث" شيء غير الحداثة الغربية. فـ" التحديث" كلمة تدل على الفعل والحركة والاندفاع نحو تحقيق نموذج ما وصولا إلى حال أو وضع متطور عن نقطة المنطلق...[وبما أن الحداثة هي حال ومآل يصله الإنسان بناء على تحديث يقوم على مبادئ عقلانية - مما جعل طه عبد الرحمان يسميها "روح الحداثة" ومن بين هذه المبادئ، "الرشد" و "النقد" و "الشمول".] فإنها تدل على السكون و تآكل الحركة و اختفاء الذات"[36].

الحداثة

وبالتالي، تبدو في نظرنا "الحداثة"، كغاية مثلى، أو كتكامل شمولي، كلي، جذري، منطلقة العقل، ومنتهاه العقل بعد أن انفتح عن العالم بشكل وأسلوب منهجي يخول للإنسان باختلاف ثقافته ولغته ومعتقداته، أن يهتدي إلى حقيقة واحدة تفسر الوجود - ونحن لا نقصد هنا دعاة "وحدة الوجود"[37] أو "الحلول" أو "الاتحاد"- وتمسح كل إمكانيات الشك والصراع، وتهدف أساسا ومبدئيا إلى جمع شمل العالم بعد أن قهره التفكيك والتفريق والتفصيل.

---

[36] د.حميد سمير، نموذج الحداثة و ما بعدها في الفكر العربي الحديث، ص.13.

[37] .يقول "الكلاباذي" رحمه الله تعالى في كتاب "التعرف" : لم سميت الصوفية صوفية؟" قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها و نقاء آثارها. و قال "بشر بن الحارث": الصوفي من صفا قلبه لله. و قال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته. و قال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم إليه، و إقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه. وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف. و قال "بن تيمية" : و هؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة و هي لباس الصوف، فقيل في أحدهم-صوفي- و ليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف، و لا هم أوجبوا ذلك و لا علقوا اللأمر به، لكن أضيفوا إليه لأنه ظاهر الحال". و قال العلامة "محمد الخضر حسين" شيخ الجامع الأزهر في كتابه "رسائل الإصلاح"، "اختلفوا في أصل كلمة صوفية و ذهبوا فيه مذاهب: أصحها أنها مأخوذة من الصوف لأن الزهاد كانوا يعمدون إلى لبس الصوف بعدا و تجنبا للبس الفاخر من الثياب."[37] بينما يقول الصوفي "محمد بن علوي المالكي" : " إننا لا نعرف التصوف نظريات فلسفية أو أفكارا أجنبية، أو عقائد شركية "حلولية" أو "اتحادية"، إننا نبرأ إلى الله من هذا كله."[37]و يقول "بن تيمية" : أعلم حقيقة قول هؤلاء أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره، و لا شيء سواه البتة. و لهذا من سماهم الحلولية، أو قال: هم القائلون بالحلول رأوه محجوبا عن معرفة قولهم، خارجا عن الدخول إلى باطن أمرهم، لأن من قال: إن الله يحل في المخلوقات، فقد قال أن المحل غير الحال، و هذه إثنينية عندهم، و إثبات الموجودين، أحدهما وجود الحال، و الثاني وجود المحل/ وهم لا يقرون بإثبات وجودين البتة" .أنظر، كامل، عبد الله، عمر، التصوف بين الإفراط و التفريط.

ويعرف البعض الحداثة بأنها "قطع الصلة بالتراث"، أو إنها "طلب الجديد"، أو إنها "محو القدسية من العالم"، أو إنها "العقلنة"، أو أنها "الديمقراطية"، أو أنها "حقوق الإنسان"، أو "قطع الصلة بالدين"، أو أنها "العلمانية"[38]؛ ولعل هذا هو مفاد الحداثة الغربية التي أدت إلى نشأة تيارات فكرية (في العالم العربي كما في العالم الغربي) تنادي بالثورة على المادية وتفشي مبادئها الجافة، غير الروحية، المندِدة بالتحرر من الدين والأخلاق والقيم الإنسانية.

فإذا كانت الحداثة هي "قطع الصلة بالتراث"، فهل هذا يعني أن التراث" هو نقيض الحداثة؟ وإذا كانت تعني "طلب الجديد"، فما العيب في "القديم"؟ أو "الأصيل'؟ وإذا كانت تعني "محو القدسية عن العالم"، فهل هي نقيض الدين والأخلاق؟ وإذا كانت تعني "العقلنة"، فهل هذا يعني أن التراث غير عقلاني؟ وإذا كانت تعني "الديمقراطية"، فهل الموروث أو القديم أو الأصيل يتنافى مع المساواة ويعني بالمقابل "الاستبداد"؟ وإذا كانت تعني "حقوق الإنسان"، فهل "القديم" مسئول عن سلب الإنسان حقوقه؟ وأخيرا، إذا كانت الحداثة تضع العلمانية كمعيار وماهية لها، فهل هذا يعني أن "الدولة" و "الدين" هما نقيضا الحداثة؟

العقل العربي بين العقل والنقل

لعل التناقض الجدلي الذي هو بالطبع جوهر وماهية اهتمامنا - ليس فقط على مستوى هذا الكتاب وإنما في كتب ومقالات أخرى – هي كون العالم العربي الإسلامي انساق وراء ما يسميه "حليم بركات"[39] بالعقلانية "النقلية" وهي عكس "العقلانية النقدية"، بحيث أن الأولى تقابلها المخيلة التقليدية والمحاكاة والقصور- *والقصور هو اختيار التبعية للغير*[40]- بينما الثانية تحيل على الإبداع استنادا إلى العقل. والأسوأ من ذلك أن ما يسود في الفكر العربي هو ال"عقلانية النقلية" التي هي تعبير واضح عن "أزمة الحداثة في الفكر العربي."[41]

سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح.ص.3. و القصير، بن عبد العزيز، أحمد، عقيدة الصوفية، وحدة الوجود الخفية، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض،2003، ص.50.

[38] عبد الرحمان، طه، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الطبعة ال رابعة، 2016.ص، 2.

[39] بركات حليم، أشير إليه في: الفلسفة في مؤتمرات للدكتور مراد وهبة.

[40] عبد الرحمان طه، روح الحداثة، ص.25.

[41] و للإشارة، ف"هذه الأزمات و الصدمات في كثير من الأحيان كانت بمثابة المنبه الذي يثير العقل العربي لينهض ويندمج في صيرورة الفكر، لأنه لا يعرف الركود و لا يحق لأي كان أن يعلن موته، رغم الأوصاف التي قد تلحق به من تخلف و تقليد و رجعية

لماذا إذا يعجز العقل العربي- العقلانية العربية، عن تصور نموذج حداثي "غير أوربي التمركز"[42] على غرار- سنغافورة، الصين، إيران[43] -.؟ علما أن الغرب أنفسهم- وهم أهله(ا) والعارفون بأسراره(ا) وخباياه(ا) [44]، أصبحوا ينتقدون بشراهة الوضع الخانق الذي أصبحت تعيشه مجتمعاتهم.

حيث أن بعض "الممارسات"[45] والمناهج "لم تعد الثقافة الغربية نفسها تقبل بها، كما هو شأن المناهج البنيوية وما بعد البنيوية، تلك التي تدعو إلى *اللامعنى* وإقصاء المقاصد، ولكنها في الثقافة العربية، مازالت تستقبل بحفاوة كبيرة ويتلقاها المثقفون بإعجاب شديد[...] فالنخبة عندنا، يقول "شكري عياد"، تقنع عادة- حتى في مجال الثقافة- بآخر ما أنتجته المصانع الأوربية أو الأمريكية، وقد تضع في أعز مكان في "الصالون" ما يلقيه الغربيون على جانب الطريق"[46].هل تحول الإنسان العربي إلى "إنسان جمهور"[47]؟

هيمنة "المادي" على حساب "الروحي" في الحضارة الغربية

إن "الفردية"، "العقلنة" و "الدنيوية"... مفاهيم حاضرة في تصور الحداثة الغربية بصورة مهيمنة وتغيب مبادئ أخرى مناقضة لها كـ "الله" و "الوحي" و "الآخرة"] ... [و معلوم أن هذه المعاني العظمى هي "مصادر الأخلاق للإنسان، لأنه لا أخلاق بغير قيم روحية تسمو بهمة الإنسان. ولما

و خارج التاريخ. الشريف زروخي، العقلانية و التنوير في الفكر العربي المعاصر، قراءة في مشروع ناصيف نصار. دار و مكتبة عدنان، 2013، ص.7.

[42] سمير أمين، نحو نظرية للثقافة غير أوربية التمركز، ضمن، الفلسفة في مؤتمرات، ص. 209.

[43] نفس المرجع ص.14.

[44] حميد سمير، نموذج الحداثة و ما بعدها في الفكر العربي الحديث،ص، 12.

[45] نذكر على سبيل المثال ظاهرة السحاق و اللذة الجنسية . يحيث يعتبر تاريخ صدور كتاب الكاتبة الأمريكية اليهودية سوزان سونتاج "ضد التفسير-بالانجليزية against interpretation حسب مجوعة من مؤرخي الفكر الغربي، تاريخ مولد ما بعد الحداثة.عبد الوهاب المسيري، مصدر سابق الذكر، ص.14.

[46] نفس المرجع، ص.12.

[47] Man mass، أو الإنسان الجمهور، أنشأ هذا المصطلح في الأدب، "جوزي أورتيجا" و يعني به أن الجمهور يتحول إلى وحدات مجهولة الهوية، لا وجه لها، أو إلى مجموعة من الناس فقدوا شخصياتهم و تقلصوا إلى مجرد كتلة غير متميزة المعالم. و "الإنسان الجمهور" هو النتاج النهائي لحضارة بدون ثقافة، متحرر من الشك و التفصيلات القافية." José Ortiga Y. Gasset. The Result of the Masses. ذكر في: الإسلام بين الشرق و الغرب، بيجوفيتش،علي عزت، ص.117.

انتفت هذه المعاني الأسمى في الحضارة الغربية، انتفت فيها أسباب التكوين الخلقي، فكان لا بد أن تخرج لنا إنسانا ماديا دنيويا تتدهور معه الأخلاق. "[48]

في هذا الصدد لا بد من التذكير بأن الغرب حقق منجزات نعتبرها نسبية ما دامت المجتمعات التي احتوتها وتحتويها في طريقها إلى التخلص جذريا من الدين والأخلاق وتعمل على تشيئ الإنسان والمرأة خصوصا. يكفي أن نلقي نظرة على الإعلانات وعن مجلات الـ "الموضة" أو "الأزقة الحمراء"[49] لنكتشف كيف أضحت حالة المرأة الغربية. إذ نتجرأ ونقول هنا أن "الحداثة الغربية" جاءت بـ "الجينس"؛ أما "ما بعد الحداثة" فمزقت "التجينس". وما كان على المجتمع الغربي إلا أن يتمزق أخلاقيا وتتشرذم داخله القيم والمبادئ الروحية- الأخلاقية. إذ يقول في هذا الصدد الدكتور هاشم صالح، واصفا ما وصلت إليه " المجتمعات الغربية": إنها " تعاني من «تخمة في العقلانية» اذ جاز التعبير، على عكس بلداننا التي تعاني من ضمور العقلانية ونمو ما يعاكسها: أي النزعة العاطفية والانفعالية الزائدة على الحد."[50]

إن إنجازات الغرب في مجال الديمقراطية وحقوق الإنسان مرئية ولها جزء خفي أيضا. ما السبب وراء الدمار الشامل الذي يعيشه "الشرق الأوسط" حاليا ومنذ عقود؟ ما السبب في تراكم "الديون" وانتشار "الحروب الأهلية" وظهور حركات معادية للإسلام" من داخل الأرض الإسلامية وخارجها- والأكثر من ذلك ظهور وانتشار الأوبئة الفتاكة كـ "فيروس كورونا"، الذي أرهب العالم وأصبح موضوع حديث الكل ولا أحد-؟ لماذا لجأ الغرب إلى تفسير التراث العربي الإسلامي بتلقائية وإلى اتهام المفكر العربي والمواطن العربي أيضا إثر ما سماه "أرنست رينان" 1892-1823"قصور[ا]في الذهنية العربية؟ دون إهمال ما يشنه بعض المثقفين الغربيين اليوم من حملات عدائية ضد الإسلام والمسلمين بأوروبا خصوصا. ونذكر من بينهم *Eric Zemmour* . والذي أسميه شخصيا: " أرنست رينان القرن الواحد والعشرين."

---

48 حميد سمير، نموذج الحداثة و ما بعدها في الفكر العربي الحديث، ص"19-18.

49 أزقة بأمستردام حيث تعرض النساء أنفسهن للبيع علانية .

50 صالح، هاشم، مناقشات فلسفية، المعركة بين العقلانية و اللاعقلانية في الفكر الأوروبي، جريدة الشرق الأوسط، الاثنين، 02 شعبان 1421 هـ، 30 أكتوبر 2000.

الفصل الثاني

"العقلانية" الغربية

وتجليات النجاح النسبي؟

"العقلانية" الغربية وتجليات النجاح النسبي؟

ما معنى العقل؟

ورد في "معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية" للدكتور "جلال الدين سعيد" إن العقل هو" جوهر بسيط مدرك للأشياء وحقائقها"، وأن هذا الجوهر "ليس مركبا من قوة قابلة للفساد" لأنه "مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله".

وقد تعددت التعاريف فيما يخص مفهوم ال"عقل" عند مجموعة واسعة من الفلاسفة خصوصا. فذهب الفيلسوف الألماني "هيجل" إلى القول بأن "العقل يحكم العالم، وبالتالي فقد سبق له أن حكم و لا يزال يحكم التاريخ كله. ويبقى كل شيء خاضعا لهذا العقل الكلي والجوهري أداة ووسيلة بين يديه. وهذا العقل كامن في الواقع التاريخي ويتكون فيه وبه. وتتألف الحقيقة الوحيدة بالوحدة التي تحصل بين الكلي الموجود في ذاته ولذاته وبين الفردي أو الذاتي."[51]

ويقول الفيلسوف الفرنسي "بيكون" إن "الفيلسوف العقلاني المحض شبيه بالعنكبوت الذي يستخرج كل شيء من ذاته وينسج من لعابه خيوطا. أما الفيلسوف الحق "فهو لا يشبه ... العنكبوت، بل هو كالنحلة التي تجمع الرحيق من الأزهار وتصنع منه عسلا"[52]. بينما ليس كل الناس يشبهون النحل. إنه مبدأ النسبية.

الحضارة الغربية ونسبية التقدم

نسبي هو كل شيء. وإن أردنا ممارسة فعل التفلسف – لأن التفلسف هو البحث في "ماهية الأشياء وأصلها وعلاقة بعضها ببعض"[53]- في هذا الصدد، لاعترفنا، كما قد سبق لنا التطرق لذلك، أنه من القائم أن يصل المرء إلى درجة من درجات المطلق، في حيز زمني لا يوجد، وليس له أثر يتيح لنا القيام بقياسه.

---

[51] جلال الدين، سعيد، معجم المصطلحات و الشواهد الفلسفية، ص.162-163

[52] نفس المرجع، نفس الصفحة.

[53] أ.س.رابوبرت، مبادئ الفلسفة، ترجمة د.أحمد أمين ، مؤسسة هنداوي، 2014.ص،13.

لا شك إذا في أن الغرب بصفة عامة وشاملة - ونقصد بذلك أوربا وأمريكا- قد حقق إنجازات لا يقوى أحد على إنكارها أو تجاوزها أو نفيها وفقا لسبب أو لآخر. وذلك راجع إلى التحول الملحوظ الذي شهدته المجتمعات الغربية في ميدان حقوق الإنسان حتى نقتصر على هذا الموضوع.

كما تشهد الجامعات الغربية على ذلك، حتى نختصر التاريخ والوقت ونتفادى التكرار. إن محركات البحث التي تحتوي على ملايير المواقع بمختلف أنواعها السلبية منها والايجابية، النافعة والضارة، إن أشهر الكتب والمجلات والأعمال السينمائية ...هي في الواقع غربية، ألمانية أو انجليزية أو أمريكية. حتى نكون موضوعيين، فمعظم علمائنا ومفكرينا تتلمذوا على يد مفكرين وجامعيين غربيين في "السوربون" و "كولومبيا" و "لوس أنجلس" و "نيويورك" و "أكسفورد".

هذه حقائق تدفع كل إنسان إلى الوقوف احتراما لهؤلاء الذين، كما قلنا في البداية، ما إن تسأل مغتربا في أمريكا، لاجئا من سوريا أو مهاجر من "اتحاد المغرب العربي" أو من "جنوب الصحراء"، عن أحواله المادية والنفسية في المهجر، حتى تغنيك نظراته وابتسامته عن الجواب.

إن الحقيقة أحيانا، تحتاج إلى "تحويل ديداكتيكي"Transposition didactique، إنها تحتاج إلى تهذيب وتبسيط وتحسين وتخفيف، .Euphémisme ولعل هذا ما ينقص مفكرينا، ما يبرز سبب غياب التواصل بينهم وبين "جماهيرهم" أو الجمهور بصفة عامة.[54]

فإذا كان المثقف يكتب لنفسه، ويبكي لنفسه وعلى نفسه، مغتربا في عوالمه، بعيدا عن أمته، فما هو إلا صنم، وليس بالمعقول وصفه بالمثقف. إن تلك مهمة صعبة المنال. إذ تقول في هذا الصدد أستاذة الدراسات الإنسانية بجامعة "كولومبيا"، "جوري فيسواناثان" حين سئلت في برنامج أعددته "الجزيرة الوثائقية" حول المفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد":

" كانت القضية الفلسطينية على الدوام متجذرة في حياة إدوارد سعيد الثقافية والوجدانية والمادية، وما جعل منه مثقفا استثنائيا هو إنه كان دائما ما يربط المناحي المختلفة من حياته بعضها ببعض، لم يكن أبدا يجزأ الأمور، هناك العديد من الأكاديميين الذي يمثل الخاص

[54] هناك قطيعة بين الفكر العربي المعاصر و الواقع العربي، وهو ما ترجمه الجابري في قوله: "الثغرة الخطيرة التي تعاني منها النخبة العصرية في كثير من البلدان العربية إن لم أقل كلها هي غياب العلاقة العضوية بينها و بين جماهير الشعب. الشريف زروخي، العقلانية والتنوير في الفكر العربي،ص.10، نقلا عن الجابري، نقد الحداثة. ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص.30.

والشخصي جانبا من حياتهم والمعرفي والمهني جانبا آخرا. في حياة إدوارد سعيد هناك تكامل بين جميع جوانب الحياة"[55].

أمام هذا التفوق الواضح للمجتمع الغربي، صحافة و إعلاما و معرفة و تقنية كذلك، أمام هذا الاحتكار الواسع للمعرفة و للقرارات أيضا، أمام هيمنة الانجليزية و الفرنسية و الألمانية و النظريات الحديثة التي تنجز معظمها بل كلها داخل المختبرات الغربية، بالجامعات و المعاهد و مراكز البحث، أمام هذا التيار الجارف للحضارة الغربية، هذا التيار "المغري"[56] كما قال بذلك الدكتور "علي الوردي" في كتاب "مهزلة العقل البشري"، لم يجد العقل العربي الإسلامي بدا من الغوص في مياهه بكل ما أوتي من قوة، منتحرا، نازعا "الجلباب" الشرقي الأصيل، ليرتدي قميص "ليونيل ميسي" أو "جوراب " ليدي غاغا"، ليتجول في "الأزقة الحمراء" و ينعم بنسيان و تناسي "جلبابه" ذاك الذي ستر عورته في مرحلة من الزمن. أ فقد العقل العربي هويته؟ ترى كيف يرد إن سئل عن هويته؟

هل هناك "عقل عربي" حتى تتم محاكمته؟

إننا لنتردد في وصفه بـ "العقل العربي"- خصوصا في هذه المرحلة من البحث- بحيث إن العقلانية تعني شيئا واحدا: " إخضاع كل شيء للعقل"، أو كما يسميه "الحامدي" "العقل النافي"[57] وهو العقل الذي" ينفي واقعا فاسدا من أجل مجاوزته إلى واقع أفضل. وبالتالي فـ"العقل العربي" ما دام أنه لم ينف بعد هذا "الواقع الفاسد"، فإننا نجازف باستعمالنا لهذه "العبارة" قبل ضبط محتواه-العقل- وتنظيفه من الشوائب أو "اليقينيات الجماعية" كما يقول الدكتور "هاشم صالح".

لقد شهدت المجتمعات العربية الإسلامية تخلفا ما بعده تخلف، في هذه كل الميادين، وبالتالي على مستوى الفكر. حيث "يؤرخ المؤرخون لمرحلة ضعف وانحلال العالم الإسلامي باللحظة التي أحس فيها أنه دون الغرب بكثير حداثة وتقنية، فأخذ يتطلع إلى نموذجه الحداثي ويركض وراءه مقتفيا آثاره في كل شيء سلبا وإيجابا. وتبدأ هذه اللحظة بالضبط عامي 1854-1856 حين أضفى

---

55 الجزيرة الوثائقية، خارج المكان، 2018.

56 علي الوردي، مهزلة العقل البشري، ص.17.

57 د.وهبة ، مراد، الفلسفة في مؤتمرات، مكتبة الأنجلومصرية، ص,187.

السلطان عبد المجيد من آل عثمان على حركة تغريب الدولة صفة الرسمية. ولما تولى السلطان عبد الحميد الثاني] الحكم] تبين له أن الركض وراء هذه الحداثة دون نقد أو تمييز بين نافع وضار هو نوع من الإتباع السلبي والتقليد الأعمى"[58].

لكن، بغض النظر عما حققه الغرب من رقي اقتصادي واجتماعي أيضا، استنادا إلى فكر النهضة والتنوير وما تلا ذلك من إنجازات على كافة الأصعدة، فما يجب أن يعرفه العرب، هو أن المجتمعات الغربية أصبحت مهدا للمادية وصورة شكلية لما يجب أن يكون، وبالتالي فإن العرب لخاسرون في مشروع المحاكاة العمياء التي هم في إطار تمجيدها ومحاولة استيرادها، بل إرغامها على الاستقرار بالرغم من قوة المفاهيم المعبرة عنها.

فإذا كانت "المدنية" محاولة إقحام "العلمانية" في الجدال، فالدليل ها هنا قاطع، ولا يقبل النقاش. فما ما دام العرب في حاجة إلى الغرب حتى يتمكنوا من ضبط المفاهيم والمصطلحات فإن "سبويه" سيغار غيرة محبطة وسوف يبكي "طه حسين" و "توفيق الحكيم" على أطلال العرب "الميتين وهم أحياء"59. وللدلالة على صحة قولنا، يجب الإشارة إلى أن عددا من "المثقفين الغربيين"[60]، أصبحوا يلومون، بل ينتقدون هذا الطغيان المادي، غير الروحي، الجاف، الذي يمثله المجتمع الرأسمالي الحالي.

ويذهب البعض ′إلى القول بأن " حجم الانحطاط والانحدار الذي توجد فيه المجتمعات المعاصرة، وإفلاس القيم الإنسانية في تناقض مع ما يتوجب أن يكون عليه الإنسان في ظل التطور المعرفي والعلمي والثورة العلمية التي تميز المجتمع الإنساني المعاصر"[61]، يشكل نوعا من التناقض الجدلي الذي يثير دهشتنا وأسفنا.

إذا كان الفكر نتيجة لمرحلة تاريخية قاسية- سماها الدكتور "هاشم صالح" ب "المصيبة" أو "الزلزال" أو "الكارثة"[62]- اعتبرت بمثابة تضحية من أجل إحياء العمل العقلاني، فإن وجود ثغرات مبدئية وملازمة لكل مجتمع بشري، من قبيل "العنف"، هو تعبير عن ضعف هذا الفكر

---

58 د.حميد سمير، الحداثة و ما بعدها في الفكر العربي الحديث،ص,102/184.

59 توما دو كونانك، الجهل الجديد و مشكل الثقفافة، ترجمة منصور القاضي، ص. 61.

60 و خير مثال على ذلك : توما دو كوانك و جاك بوفربس.

61 المصطفى رباني: الفكر المغربي المعاصر وحتمية النقد المزدوج، أنفاس بريس، الأحد 23 فبراير 2020, 15:40.

62 هاشم صالح، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ ص.7/327.

وقصوره. وبالتالي فإن القصور الذهني الذي أقره بعض المستشرقين حول كفاءة المفكر العربي هو ناتج عن نقل غير منهجي ولا يراعي أدنى قوانين البيئة والثقافة للثقافة. بحيث أن العنف ظاهرة كونية، لم تكن من عيوب الشرق فقط، بل هي عيب الإنسان. ولعل استمرار هذا العنف بسائر أنواعه، أمر يساعدنا في توضيح معنى الفكر والعقلانية. بحيث ما دامت هنالك حروب وصراعات وأزمات اجتماعية وبيئية ... فإن الفكر الذي نرجو منه أن ينقذنا من الوقوع في هوة لا نهاية لها، قد انكب هو الآخر على السقوط و وجود الفكر و التخلف شيئان متناقضان، و لا شك في أن أحق الشيئين بالبقاء هو الفكر.

ولعل انحلال و تفكك و عدم استقرار العالم العربي سياسيا حتى نقتصر على هذا الباب دون الخوض فيه- هو نتاج لغياب "بنية عقل عربي"، أي عقل عربي كما نعشق أن نصفه: عقل عربي باستطاعتنا الإشارة له فعليا و نظريا، عقل له وجود و يفتخر بوجوده علانية، دون أن يجد أحد فرصة أو ثغرة تتيح له ممارسة نوعا من الفلسفة النظرية الشمولية و المفصلة، في حين أن واقع العالم العربي إذا كان مشكلا فهو مشكل العرب مبدئيا، أما نظريا، فقد سبق لنا الاعتراف أن الغرب باعتباره أكثر تطورا من العالم العربي، و بحكم الحركات الاستعمارية التي طالت لأزيد من عقود، و التي أضعفت إلى حد كبير الجانب العربي رغما عنه، و بالرغم من خروجها من البلدان المستعمرة، ظلت العلاقة قائمة بين الطرفين و هذا ما يسمى ب"التبعية"- وجب عليه – الغرب- رد الاعتبار للبلدان المستعمرة و المنتهكة حقوقها و المدبلجة لغاتها و المغتصبة لهجاتها. وواضح من قول" طه عبد الرحمان"-أن القصور بإيجاز هو اختيار التبعية للغير"، أنه يقصد ذلك الخطأ الذي ارتكب -بضم التاء-:

لجوء المجتمعات العربية الإسلامية ومؤسساتها ومسئوليها بما في ذلك مثقفيها، إلى الاقتداء بالنموذج الحداثي الغربي باعتباره نموذجا متقدما وذو مناهج وخلفيات أكثر فعالية وأكثر تحقيقا للراحة والربح. لقد أصاب المقلدون ولن يقوى أحد على لوهمهم خاصة وأنهم ظنوا- ونسوا أن بعض الظن إثم- أن هذا الإسقاط المباشر –أقول- للثقافة الغربية في مجال عربي إسلامي له موروثه الثقافي، وله أنصار، ومثقفين، وأدباء وعلماء، وأطباء ومهندسين ورياضيين حتى نشمل قول المثل: العقل السليم في الجسم السليم"، كان بمثابة "غلطة".

ونحن نعلم وأنتم كذلك أنه "لكل عالم هفوة ولكل حصان كبوة" وشأن العالم في هفوته هو –إن صح القول- شأن الأمة في غلطتها. لذلك، و الحمد لله على نعمة العقل، هذا الجهاز الغريب

والمعقد والخارق، الذي يتيح لنا فرصة طرح السؤال بالرغم من صعوبته، فالسؤال تم طمسه منذ زمن، يبدو بعيدا، مخفيا، لا يرى، ومن اقترب منه احترقت يداه، يقول "هاشم صالح"، وعاد خائبا، كالمترجم الذي يغدو بعد الترجمة إنسانا آخر، مختلف عن الإنسان الذي قام بالترجمة وأنهاها ووضع نقطة، أو ثلاث نقط...

لكننا نجرأ على القول إن الهفوة أو الغلطة قابلة كل القبول للتجاوز، بل قادرة على التحول، على المسخ الايجابي- مع أن الكلمتين غير قابلتين للجمع، وأن توظيفهما جاء تأكيدا لقول "هاشم صالح أن الفكر العربي المستقبلي سيكون بمثابة فكر "فضائحي".

" فالفكر الفضائحي" هنا نتاج لكلمتين متعارضتين مبدئيا، لكون الفكر ينئ بنفسه عن الفضيحة- بالمفهوم العربي الذي غالبا -أقول- ما يعبر عن" الطابوهات"، و للفكر- لحسن الحظ - و الفلسفة أيضا، قدرة رهيبة على التحويل- تماما كعملية "التحويل الديداكتيكي"، تلك العملية التي تتيح تغيير شكل المضمون تماشيا مع المتلقي، حتى يسهل عليه فهم المضمون، و بالتالي يكون للتحويل دور التبسيط و التسهيل و اجتناب الصعقة أو المباغتة، كأن نشرح لتلميذ في السنة الثانية بالمدرسة الابتدائية نظرية "فيتاغورس" بلغة غير العربية- بالرغم من أن هذه الأخيرة أصبحت، و هي ليست كذلك، بمثابة لغة أجنبية - و بلغة رياضية محضة، دون اعتماد لغة سهلة أو أمثلة مبسطة، إن هذا ما نسميه "الصدمة".

إن الغلطة التي ارتكبها العرب، ليست وقوعهم في غلطة التقليد، بل عجزهم عن الوعي بضرورة وضع حد لتراكمات التقليد التي تتيح هي الأخرى فرصا لا تحصى للغير كي يفرض ما يجب أن يفرض وكأن لنا عقولا مستوردة هي الأخرى.

إن الغلطة التي نحن العرب بصدد تعميقها وتلطيخها بالدماء، هي هذا "اليأس"، هذا "التراجع"، "فقدان الأمل"، "الهروب"، "الموت"، نحن أصبحنا تحت تأثير مباشر لخطاب "عدمي"، "لا وجودي"، يؤدي بمتبنيه إلى "الموت"، "الانتحار"، "العزلة"، "التغاضي عن الذات" ونكرانها ومحاسبة "التيولوجي" و "الماورائي".

غلطة العالم العربي واضحة - و قد سميت بالأزمة في أعمال نقدية كثيرة، و" الأزمة تعني أن هناك تناقضا جدليا و التناقض الجدلي ينطوي على وحدة و صراع الأضداد"، و هي الإيمان بأن الوقت قد فات، لبداية مشروع جديد، حديث أو حداثي، أو ربما غير هاته المفاهيم التي أرهقت

المفكرين، ربما يأتي العرب بمفهوم جديد –Néologisme- ، و يخضع لتطبيق جديد و ذلك في وسط لا يغيب فيه العقل و يكون فيه الإنسان واعيا مستيقظا، حتى لا يدخل ضمن من وصفهم "هيراقليطوس" ب"النائمين" و "المنفصلين عن الحقيقة الخاصة بهذا العالم الذين يعيشون فيه كحلم."[63]

إن عبارة "العقل العربي" تحتاج لأسس فكرية وثقافية، مفادها إن العالم العربي الإسلامي، يعيش أزمة فكرية وثقافية واجتماعية، تجعله- بالمقارنة مع العالم الغربي، الذي حقق ما حققه بطرق ذات مشروعية نسبية تارة وبطرق تغيب فيها المشروعية بشكل مطلق- يحس ويشعر بأثر الأمراض التي تنخر جسمه الهزيل والمتآكل تدريجيا، لأن من مسببات هذا التراجع الذي فرض علينا الانتماء إلى دول العالم الثالث- أو "في طريق النمو" وهي عبارة تدعو إلى الضحك، الضحك الهستيري- "الأنانية" و "حب الذات". ولسوء الحظ فالشر لا يؤدي إلا إلى الشر، لذلك تظهر أمراض أخرى تلقائيا بوجود الأخرى، فالأنانية تسبب العزلة، فيغدو المرء محبا لنفسه وأشيائه أكثر من أي شيء على الإطلاق، فيبدأ في توسيع عزلته التي غالبا ما تقتله. لقد مات العقل العربي حين ماتت بموته الوحدة العربية.

في الجزء الثاني من "نقد العقل العربي"، "بنية العقل العربي"، اعتمد الجابري المنهج البنيوي، وفي سياق آخر يشير حميد سمير- إلى أن "المناهج البنيوية" فات أوانها ولم تعد صالحة، وهنا يمكن أن نلاحظ نوع من النقد غير المباشر لـ- سمير- تجاه الجابري، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على غياب "الوحدوية" في الفكر العربي الحديث. وغياب "الوحدوية"، سبب رئيس في استمرار البحث المجحف وغير النافع عن عقل عربي مستقل، يمكن الإشارة إليه استنادا إلى الواقع-الفعل أو إلى التاريخ والذاكرة والأرشيف. وفي نفس السياق، يعترف المفكر السوري "جورج طرابيشي" أنه قضى أكثر من خمسة عشر سنة في نقد الجابري، ومشروعه "نقد العقل العربي". فذهب إلى "نقد نقد العقل العربي"، وهو المشروع الذي سعى من خلاله الجابري إلى تجديد الفكر العربي، مسائلته ومطالبته بالنهوض والاستيقاظ. والسؤال المحير هو كالاتي: لماذا كان من الضروري أن يقضي المفكر السوري كل هذه المدة من أجل نقد الجابري؟ ألم تكن هذه المدة كفيلة بطرح تساؤلات أخرى، غير معهودة ومن القائم أن تسهم فعليا أو نظريا في انتشال العرب من وضعهم هذا عوض أن نظل نستهدف بعضنا البعض، وكأننا في حلبة صراع؟

---

[63] توما دوكونانك، الجهل الجديد و مشكل الثقافة,ص.60.

إن العقل العربي في حاجة إلى أن يستيقظ. فمن يوقظه؟ أ سنظل دائما أبدا في انتظار "كارثة" هاشم صالح، حتى ينبثق الفكر ويخلصنا؟ ما الذي يضمن ذلك؟ ويقصد أفلاطون بـ "الاستيقاظ" "إدراك الجميل نفسه، وكذلك الأشياء التي تساهم فيه، بدون الاعتقاد أن الأشياء التي تساهم فيه هي الجميل نفسه أو الجميل نفسه هو الأشياء التي تساهم فيه."[64]

وبالتالي إن اعتبرنا الحداثة هي "الجميل"، وأعمال المفكرين الذين ينتقدون ويصنفون ويتصورون مستقبل المجتمع" هي الأشياء التي تساهم فيه، فذلك لا يعني بتاتا أن عملا واحدا سيؤدي إلى تغيير الوضع الاجتماعي العام، بشكل جذري. فدارس القانون لا يدرس الفيزياء، فنحن لسنا في زمن ابن رشد ورفاقه، وبالتالي فالمفكر مفكرون. ووجب إذا تبني الحوار والتواصل الفعلي والخالي من الصراعات الأيديولوجية خصوصا أو العرقية أو القبلية حتى نتمكن من تجاوز اليقينيات الجماعية وسوء الفهم أو سوء النية كما يقول البعض.

---

[64] توما دوكونانك، الجهل الجديد و مشكلة الثقافة. ترجمة، منصور القاضي.ص.81

الفصل الثالث

إشكالية التغيير في الفكر العربي

إشكالية التغيير في الفكر العربي

ما معنى التغيير؟

من الصعب أن يتعايش "المفكر"[65] مع "العامة"، إنها تحتاج لإزاحة ستار زمني عتيد، حتى تحتمي بأفكاره وتشكل إن أرادت الوحدة في عالمه وليس في ماضيها الممتلئ عن آخره بالهفوات. وليس من الواجب على المثقف قتل نفسه أو "الإلقاء بها إلى التهلكة"[66]، لما في ذلك من تناقض وتعارض مباشر مع الإرادة الإلهية، حتى يتمكن من إشعال فتيل الفكر لدى أحد العامة، غير مؤهل وغير مقتنع وغير مبال بالوجود، أو مبالي على غرار ما يطمح لتحقيقه أصحابه الماديين، ذوي الفكر المحدود.

في الواقع، "*إن الفكر أكثر ندرة مما نتوقع، بل إن الأمر الطبيعي هو ألا يوجد الفكر، الأمر الطبيعي هو أن يسهوا الناس عن الفكر، أن ينسوا الفكر، أن يعيشوا في غفلة وبحبوبة عن العيش بعيدا عن حمأة الفكر...إذا كان المقصود بالفكر الحد الأدنى من التفكير وتدبير شؤون المعاش والحياة اليومية-أو كتابة رسائل الدكتوراه- فإنه متوافر على كل الأصعدة والمستويات.... أما إذا كان المقصود بالفكر انبثاق جديد للأشياء أو انهيار تصور سابق أو سقوط مرحلة وبداية مرحلة، فإن الفكر نادر جدا.*"[67]

فوجود الفكر شيء نادر فعلا. وهذا ظاهر وجلي في حياتنا اليومية. نحن ليس لدينا الوقت لنفكر، نحن نسرق دقائق من كل شيء حتى نفكر. والملاحظ والطبيعي هو أن تفكيرنا يختلف وتختلف معه مشاعرنا وأحلامنا ومحركاتنا الشعورية واللاشعورية، فنغدو بشرا مختلفين وونحن متشابهون. نحن نهرب من الفكر، نتجاوزه ونحن في الحقيقة نهابه، إنه الاختيار الصائب أو لنقل العقلاني الخالص. التفكر. إن فيه مسائلة للكون والوجود معا، وفيه أيضا أسرار لو جمعت في كتاب لن يكتمل أبدا.

---

[65] تنتمي الفلسفة لدائرة التفكير النظري المحض و القريب من المسائل الكلية الشاملة، أما الفكر فينتمي لدائرة التأسيس النظري و التفسيري و التغييري في مجال جيوثقافي محدد-العالم العربي نموذجا. من مقال" الفلسفة و الفكر، فض للإشكال المفاهيمي، هاني نسيره-الحوار المتمدن، العدد2006.22/1 .

[66] وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، سورة البقرة، الآية، 195.

[67] هاشم صالح، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ ص.327/ 5.

في الحقيقة، نحن نجهل الفكر. وهو لا يجهلنا، إنه يرافقنا، يتلون ولن ينبهر بلونه هذا سوى اللبيب. نبتعد عن الفكر لسبب واحد: إنه يفرض علينا نوعا من التنازل المفرط إيجابا. إنه مفرط يجعل ذاك الذي يقترب منه شجاعا، له نفس طويل وهدف إنساني عميق. وإيجابي لأن فيه منفعة لا تصفها الكلمات، إن التوصل إلى "منطقة الحقائق الكبرى" شيء يثير الرعب. وذلك لسببين:

السبب الأول يتمثل في كون الإنسان العاقل يتحول في مراحل من تعاطي الفكر إلى إنسان أكثر عقلانية أو أقلها. يصبح أكثر عقلانية لأنه يحس بالتغير الذي وقع. لأنه استطاع الاستجابة لنداءات متتالية فيها جزء من الصواب أو وهم قريب إلى الصواب. فيصبح الإنسان العاقل الذي دخل نطاق الحقائق الكبرى أكثر فهما للعالم. والأخطر في هذا الحال هو أن الشك يراوده في مدى صواب اختياره هذا القاضي بوضع حد للتصور العادي والبسيط للوجود.

والسبب الثاني هو ذلك التباعد السحيق بين العالم والعامة.

ولعل ندرة الفكر عموما تفرض علينا طرح سؤال: لماذا لا يهتم بموضوع الفكر إلا فئة قليلة من الناس؟ لماذا تفضل الأغلبية الساحقة الركود وراء الأموال والملاهي والسهرات والوظيفة العمومية التي لا تكاد توفر لهم سوى المأكل والمشرب والملبس؟ لماذا تعجز الأغلبية –العربية- عن القراءة؟ كيف تبدو القراءة في نظر أطفال الشوارع، والعالقين بين ضفاف الأطلسي، ورعاة الغنم بالجبال؟ أو الجماهير، حتى نعيد عبارة "غوستاف لوبون"؟

إن ما ينقص الفكر العربي حتى يصل مبتغاه، و يحقق أحلام من ناضلوا و سهروا الليالي من أجل المضي قدما به، من أجل أن يعيد الاعتبار للذهنية العربية، من أجل أن يخلق ذلك التوافق و الترابط و التماسك المشترك، من أجل أن ينتقل من التجريد إلى الواقع، من أجل ضم التيارات المتطرفة و اللاعقلانية، من أجل إرساء أسس عقلانية عربية، من أجل-كما قال الأمين العام للمنظمة العربية للثقافة محيي الدين صابر- صياغة مشروع حضاري عربي تتجاوز به الأمة العربية واقع التخلف و التجزئة و التبعية إلى واقع جديد من الوحدة و الإبداع في سياق حضاري مسؤول"[68]، من أجل وضع حد لهذا القصور الفكري و الاجتماعي و الاقتصادي، من أجل تحقيق العدالة و المساواة و تطبيق كل ما من شأنه المضي قدما بالمجتمع العربي و ذلك في حدود

[68] وهبة، مراد، الفلسفة في مؤتمرات، سبق الإشارة له.

مسطرة و قواعد مشتركة لا تتعارض مع الأخلاق الإسلامية و لا مع الأخلاق الكونية التي لا تنفي أو تطعن في ثقافة أخرى و لا تتبع ما تفتيه أيديولوجيات أهم مميزاتها "عدم الانتماء التاريخي و الثقافي و الديني للحضارة العربية الإسلامية. من أجل التوصل إلى هذا المبتغى وهذا المراد والغاية التي يطمح للوصول له كل مجتمع وكل أمة، تفرغ إلى وضع اللبنات الأساس لهذا المشروع عدد لا يمكن لنا بحكم تجربتنا المتواضعة في هذا المجال، إحصاؤه أو ضبطه وتصنيفه ضمن جدول زمني، تاريخي، محدد، لكن ما يمكن أن نقول هو أن ثمة ثلة من المفكرين العظماء طبعا الذين سخروا حياتهم للفكر والآداب والتفسير والنقد، عبر العصور.

ماذا حقق المفكر العربي؟

ونذكر على سبيل المثال: "الأفغاني"، "محمد عبده"، "رشيد رضا"، "ابن باديس"، "عبد القادر الجزائري"، وقد تم تصنيفهم ضمن تيار يسمى "الهوية الإصلاحية"، و "الطهطاوي"، "خير الدين التونسي"، "طه حسين"، "العقاد"، "محمد حسين هيكل"، "قاسم أمين"، وهم رواد "الهوية الليبرالية"، و "شبلي شميل"، "فرج أنطون"، "نقولا حداد"، "سلامة موسى"، وهم رواد "الهوية العلمية-العلمانية".

إلى جانب هؤلاء، ندرج هذه الأسماء التي أسمت فعلا في إثراء و إغناء المكتبات العربية و صمدت صمودا في وجه التيارات الغربية المعادية للعرب المسلمون في شتى مجالات الفكر، و نذكر الفيلسوف و الجامعي القدير "محمد عابد الجابري" ، "طه عبد الرحمان"، "محمد أركون"، "فهمي جدعان"، "حسن حنفي"، "عبد الوهاب المسيري"، "المهدي المنجرة"، "على الوردي"، "جورج طرابيشي"، "وائل حلاق"، "محمد سبيلا" و القائمة طويلة (...).

لكن، حتى لا نكرر كثيرا من أقاويلهم والتي هي بدون منازع نتاج لدراسات معمقة ولمجهودات وجهود ذهنية وجسدية وسهر وتعب، لكن كل تلك المتاعب زائلة وذائبة لا محال في هذا الشغف والهوس والطعم الذي لا طعم له، ذلك الذي يفرزه الفكر والفلسفة والجري وراء السؤال وحل المعادلات ومسألة الذات والتأمل وكل ما ينتج عن العقل ويهدف إلى ضبط أو عقلنة الواقع.

نحن، نسأل فقط. والواضح أن الفلسفة شأنها شأن الحداثة. بحيث إذا كانت هناك فلسفة تزعم أنها قادرة على وضع حد لمجال تخصصها، أو مذهب فلسفي أو فكري يؤمن بقابلية وضع حد

لعمل العقل، فذلك سيكون لا محال ضرب من ضروب الوهم. والحداثة إن تحققت بحذافيرها أصيبت في عين الوقت بالجمود.

لعل هذا ما دفع بعض المفكرين والمذاهب، إلى تغيير الألفاظ بإضافة لفظ زمني يدل على القديم زمنيا والجديد زمنيا، كأن نقول مثلا: "الاستعمارية" و "ما بعد الاستعمارية"، أو "الحداثة" و "ما بعد الحداثة". Colonialisme-Postcolonialisme/Modernité-Postmodernité. سعيا من وراء ذلك إلى محاولة تبرير وقع الزمن على الأشياء والظواهر والإنسان، محاولين بذلك مواكبة التطور، أي تطور الأنشطة البشرية بما في ذلك "التفكير"، داخل الزمكان. ولعل هذا التطور ليس من المعقول وصفه بـ"التحديث" أو "الحداثي"، إذ لم يخضع لمعايير عقلية، تتنافى جذريا مع "الشر".

والظاهر أن مسألة الحداثة هذه، مسألة نالت ما يكفي من الحديث. فإذا أردنا أن نحصي علماء الكلام، فاتنا الفرصة لضم أحد علماء اللغة، وإذا بادرنا بالحديث عن كتاب حول الزهد أو التعصب الديني، لأصابتنا الحيرة في الاختيار أو التصنيف. والأكثر من ذلك، فهناك من التعاريف ما يغرق "أرض زيكولا" عن أكملها كلمات، بل عبارات وفصولا من أكبر وأصغر وما بين الاثنان من المعاجم الأكاديمية والمتخصصة والموسوعية. أليس المعنى واضحا إلى هذه الدرجة؟

كما قلنا، فقد خصص لموضوع الحداثة وحدها مئات الدراسات والأبحاث. ومنها من يضرب بها المثل ومنها مما عاد يضرب بها المثل وهناك ركود لا يبحث عن المثل داخل المجتمعات العربية الإسلامية. كيف يعقل أن أجيالا من المفكرين والفلاسفة والأساتذة الجامعيين وغيرهم من الباحثين المستقلين والنقاد والمصورين والمخرجين السينمائيين والمسرحيين والمغنيين، هؤلاء الذي يبثون في النفوس الضعف والانكسار وتستقبلهم شاشاتنا وجماهيرنا بكل افتخار واعتزاز وكأنهم حرروا فلسطين، كيف لهم أن يعجزوا عن جمع شملهم؟؟

نعرف حق المعرفة، ومجال تخصصنا ليس بالبعيد أو الأبعد عن هذه المعرفة - أن عملية الفهم أو الإفهام أو التلقين أو التدريس أو التربية، حتى نكون أكثر شمولا تحتاج إلى جهود ذهنية وفعلية عظيمة ونابعة من نية التغيير وحب الخير.

والتربية تشمل تعلم القيم والمبادئ المنظمة للحياة الاجتماعية، بينما ترتبط المفاهيم الأخرى بالفصل الدراسي بجميع أنواعه وفصوله. حيث يعمل المعلم على شرح وتبسيط المحتوى المراد تعليمه للمتعلم، وذلك تماشيا مع مستويات فهمه، التي تختلف من متعلم لآخر.

فليس كل المتعلمين قادرين على الانتباه والتركيز بنفس المعدل، وليسوا محفزين للتعلم بنفس الدرجة، ولا يملكون نفس المرجعيات الثقافية أو العرفية، وقد لا ينتمون إلى نفس الفئة الاجتماعية، وهو الشيء الذي جعل عالم اللسانيات الاجتماعية "بورنشتين" يصرح قائلا فيما توصل إليه في بحثه، أن المتعلمين الذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة، العاملة، الهشة والأمية، تكون نسبة استعمالهم ودراستهم للغات الأجنبية ضعيفة، وبالتالي نجد عندهم مشاكل وصعوبات في هذا الصدد. بالمقابل، أفضى البحث إلى إقرار كون المتعلمين الذين ينحدرون من أسر بورجوازية أو ميسورة، يكونون أكثر إلماما باللغات الأجنبية.

وبالتالي، فدرجات الفهم تختلف من وسط لآخر، بل قد تختلف حتى في وسط أسرة واحدة. والواقع يبين ذلك بجلاء، فقد ارتفعت نسبة الجريمة، وظهرت فئات اجتماعية أخرى لا نعرف صراحة من أين وكيف ظهرت، لكن لله في خلق شؤون، وكثر الطلاق، وتفشت مظاهر المادية الرأسمالية، المؤيدة للربح والثروة وإقصاء الضعيف. ولا شك أن الأدب والسينما ووسائل الإعلام - بما في ذلك وسائل التواصل الاجتماعي، هذه الطفرة المبهرة الذي حققها الغرب، حتى أن العرب سارعوا إلى تشييد مدن على هيئة برلين أو "لوس أنجلس" مقلدين عمران الحضارات الغربية ومتأثرين بما يبث على مواقع التواصل، فغدا "القدس" فقط رمزا ل "لا أعرف،" يشار إليه من بعيد وكأنه ليس ملكنا- والأدب أيضا، يستعمل من أجل تمرير أيديولوجيات العالم الجديد وممارسة الدعاية بكل أصنافها ودرجاتها، مستغلة جهل الجمهور، ومربية فيه كل الشرور المنبثقة من الفكر المادي.

بالإضافة إلى ذلك، سارع ثلة من المثقفين الغربيين، وقد تمت تسميتهم بـ "المستشرقين"، نسبة إلى "الاستشراق". حيث إن موضوع بحثهم بصفة عامة، هو "الشرق" و "الثقافة العربية الإسلامية". فكان أن أساؤوا إلى الإسلام والمسلمين، بأطروحاتهم الجامعية ومحاضراتهم الفلسفية، وخطاباتهم السياسية، وسياساتهم الاستعمارية، التي أضعفت، بدون شك، الجانب المستعمر- بفتح الميم".

ما السبب الذي دفع هؤلاء "المثقفين" – ونكاد نطعن في المنطق والمعقول، إن وصفناهم بالمثقفين، لأنها "الثقافة" غير ذلك، والفكر والفلسفة، لا يمتان لهذا النوع من "المعرفة" بصلة- إلى التصرف بهذا الشكل؟

إن وجود الاختلاف لحكمة إلهية عظيمة. ولا يعرف قيمتها إلا أولوا الألباب. وطبيعي أن يرى "الغريب"- أي المثقف الغربي- "الثقافة العربية الإسلامية- بعين أخرى. عين يغتريها الفضول، وتتعدد الصور التي تتهافت على المخيلة الدخيلة عن "ثقافة أم". والتاريخ وحده، والجامعة، ليسا قادران على ضمان "الحقيقة".

فالباحث في علم النفس، لا يفترض به أن يدعي فهم "النفس البشرية" بشكل مطلق. كذلك المثقف الغربي، لا يمكنه أن يحيط بكل خصائص الثقافة العربية الإسلامية، ليس بدعوى عدم انتمائه فحسب- حسب قول الجابري، إن المثقف لا يعتبر مثقفا إلا إذا كان ينتمي إلى الثقافة التي ينتمي إليها وأن تتوفر مجموعة من الشروط، وهي أن يفكر المثقف بواسطة الثقافة ومن خلالها. و بالتالي، و بناء على هذا القول فالأجدر بفهم ثقافة، هو مثقف يخضع لشرط الجابري- و إنما لأن الله عزو جل قال، في كتابه الجليل، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"[69] إذا لم يصدق قول الجابري، القائل بأن المثقف الحقيقي هو الذي يخضع لقاعدة الانتماء للثقافة الأم و التفكير بها و من خلالها، في ما يرهقها من مشاكل و أزمات، فصدق الله تعالى، حين قال بأن العلم الذي وهبه للإنسان، و الذكاء الذي يقوده للإبداع، و تحقيق المنجزات، هو هبة ربانية اسمها العقل والذي لا يستطيع أن يدعي الإلمام بكل شيء و أن هناك حدود لعمله.

[69] سورة الإسراء، الآية، 85.

الفصل الرابع

الاستشراق:

بدايات عرقلة عجلة الفكر العربي

الاستشراق: بدايات عرقلة عجلة الفكر العربي

ما معنى الاستشراق؟

يشكل "المستشرقون الغربيون بالنسبة للشرق الإسلامي مشكلة ثقافية ودينية كبرى، وهذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها اعترافا صريحا وكاملا."[70] حيث تقول الباحثة في العلاقات الدولية، "نسيبة تامة" أن "الإلزامية الحضارية تفرض على المسلم المعاصر أن يكون على إطلاع مباشر ومستمر على ما ينشر عنه حول العالم، بحثا وتقصيا، تحليلا ونقدا واستشرافا."[71]

وتضيف نفس الباحثة واصفة المستشرقين – "*وقد أطلق لفظ الاستشراق على تلك المحاولة التي قام ويقوم بها بعض مفكري الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامي وحضارته وثقافة الشرق وعلومه"*[72].- [إن] هم في غالبيتهم من رجال الدين اليهود والمسيحيين وهذا لا يمنع أن يكونوا من السياسيين وعلماء الأنثروبولوجيا والرحالة والمستكشفين"[73].

ويؤكد "طه عبد الرحمان" في نهاية "روح الحداثة"[74] أنه لا سبيل للمجتمع المسلم في التغاضي عن بعض المفاهيم الحضارية الجديدة، كمفهوم "ما بعد الحداثة"، بل يجب بالمقابل قبول تلقي هذه المفاهيم وفق شروط محددة، تراعى من خلالها الثقافة العربية الإسلامية- ". و "الثقافة هي التي تحدد تطور المجتمعات، قبل أي شيء، قبل أنماط الإنتاج والأنظمة السياسية بكثير."[75]- بحيث تضمن نوعا من الحرية في الإبداع، وبالتالي تحقيق الاستقلال والموضوعية التي مطلقها التاريخ والواقع في دراسة الظواهر وتقييمها والتنبؤ بها ورصدها ومعالجتها.

---

70 صبره، عفاف، المستشرقون و مشكلات الحضارة، دار النهضة العربية، 1985.ص.11.

71 نسيبة تامة، المعرفة، سلاح المستشرقين الجدد.مدونات الجزيرة.2017-07-26.

72 د.محمد السيد الجليند، الاستشراق و التبشير، قراءة تاريخية موجزة،دار قباء للنشر و التوزيع، القاهرة، 1999، ص.11 .

73 نسيبة تامة. سبق الإشارة له.

74 عبد الرحمان طه، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة ،2016 . ص.265-267.

75 توما دو كونانك، الجهل الجديد و مشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،الطبعة الأولى، 1424هـ-2004م.ص.51.

في هذه الحالة، سيكون الفكر العربي مرغما على مجابهة الإنتاجات الغربية المعادية للإسلام وثقافته. ولعل إنتاجه المحلي، سواء تعلق الأمر بالأبحاث والأطروحات الجامعية التي تتآكل صفحاتها في الغرف عالية الرطوبة، أو تظل تترامى من غرفة لأخرى، حتى تستقر بجانب الطريق، تنقسم إشكالياتها تدريجيا إلى أن يبقى الإهداء عالقا في جذع شجرة، أو بالصحافة والإعلام، أو السينما والمسرح، أو الرواية والنقد. أما الغناء فذلك مهزلة ما بعدها مهزلة وضع فيها فن الغناء في مجتمعاتنا العربية. إنه أكثر المجالات تأثرا بالثقافة الغربية، حتى أن الكل أصبح يتهافت نحو النجومية والشهرة في جو هستيري يظهر بجلاء إلى أي حد تحتاج "الجماهير"[76] العربية إلى "ملأ الفراغ" بعد أن "اغتربت" و "ضاعت" وهي تبحث عن "هويتها". لقد اختنقت. حارت. ضاقت. جن جنونها. والثقافة الغربية مليئة بالعيوب، حتى نكون موضوعيين. ولنبين ذلك، ونقف مثلا على "دور السينما التي تعرض أفلاما إباحية في ألمانيا وعن نسبة الجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية، وعن معدلات الانتحار في الدول التي توصف بأنها "متقدمة".[77]

ما المعيار المعتمد في وصف هذه المجتمعات بالحديثة أو "المتقدمة"، ما دامت مفاهيم "الجريمة" والانتحار" والإباحية" مرتبطة بها منذ عصور مضت؟ لما توجب على المثقف الغربي- ونحن لا نعمم، اعتبارا لوجود مفكرين عملوا على تبني الحيادية والموضوعية في دراسة الشرق، حتى أن هناك من دافع عنه دفاعا" واعتنق الإسلام حتى[78]- مهاجمة الفكر العربي الإسلامي؟ كيف تجرأ المستشرقون على التحريض على إدانة الإسلام و "تفرقة شمل المسلمين"؟ لماذا هذا التخوف من الإسلام؟ ثم، ألم يكن الاستعمار أكبر عيب سيظل يلاحق المجتمعات الغربية حتى وإن حققوا مثالية "توماس مور"؟ ستظل فكرة "الاستعمار"، و "الاستغلال"، و "الاستنزاف"، و "التحريض"، و"الإبادة الجماعية"، و "العبودية"... مفاهيم سوداء في التاريخ الغربي. لا مفر منها، سوى التصالح مع شعوبها. بل حتى التصالح مع شعوبها لن يفلح في طمس التاريخ الأسود للاستعمار ولن يشفع له في المستقبل القريب والبعيد، بل والأبعد.

ولا شك في أن كل قارئ بغض النظر عن جنسه أو لغته أو انتمائه، سيطرح هذا السؤال-لماذا؟ - مباشرة بعد الوقوف عند هذا الاعتراف- وهو ليس إلا مثالا بسيطا وما خفي كان أعظم- إذ يقول

---

76 بيجوفيتش، عزت، علي، الإسلام بين الشرق و الغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، دار الشروق، ص.117-120.

77 بيجوفيتش، عزت، علي، الإسلام بين الشرق و الغرب، دار الشروق،2009، ترجمة يوسف عدس، تقديم عبد الوهاب المسيري، ص.9-10.

78 نذكر على سبيل المثال "ميشو بللر"، "جوهن لويس بوركهارت"، فريتس كرنكوف، و قد اعتنقوا الإسلام .

"هانوتو" في مقال معروف: "لا بد من العمل على تفكيك تلك الرابطة بين المسلمين شرقا وغربا"79. إن الجواب عن هذا السؤال بين، ونكاد لا نبذل أي جهد حتى نتمكن من الإحاطة به، إنه في طيات محاضرة "ارنست رينان" التي ألقاها بجامعة السوربون بتاريخ 29 مارس عام 1883م عنوانها: "الإسلامية والعلم"[80].

إن إساءة المستشرقين للشرق لمتجاوزة، وأكاد أصرح أن الغرب لهم جزء من المشروعية فيما يقومون به من نقد ومسألة وتمحيص. إن إنتاجات المستشرقين بالرغم من الجانب اللاإنساني الذي تجسده اعترافاتهم وكتاباتهم، يعبر عن الرغبة في الرفض، في الصدارة، وهذا الطموح إنساني بطبعه. إن الإنسان العظيم هو الذي يطمح لتحقيق واحتلال مراتب عليا في الكمال- والكمال لله وحده لا شريك له.

وما يعاب على هجوم بعض المثقفين الغربيين على الإسلام خصوصا هو سوء فهم للتاريخ، والأكثر من ذلك هو ما آلت إليه المجتمعات الإسلامية من دمار وحروب وجماعات تشيد بإسلامها وتقيم المذابح باسم الله. إن هذا التشتت الداخلي هو ما سمح بطرح تساؤلات حول عقلانية الإسلام، والأكثر من ذلك أن تعدد المذاهب هي الأخرى مسألة تحيلنا على غياب الوحدوية في العالم العربي الإسلامي، وكلها أسباب تبدو داعية للسؤال لا محال.

---

79 د.محمد السيد الجليند، الاستشراق و التبشير، قراءة تاريخية موجزة،دار قباء للنشر و التوزيع، القاهرة، 1999، ص19.

80 الفراك، احمد، استشراق رينان بين الفكراوية و الخوف من مستقبل الإسلام، منار الإسلام، 21، يونيو 2018.

الاستشراق بين مؤيد ومعارض.



Ernest Renan[81]
02/10/1892 - 28/02/1823

عرف "ارنست رينان[82] Ernest Renan بمهاجمته الإسلام في العديد من الخطابات. وفيما يلي بعض الاقتباسات منها:

« L'Islam est la plus complète négation de l'Europe, L'Islam et le fanatisme… »[83].

---

[81] Philologue français et historien des religions (1823-1892). Né en Bretagne, il suivit les cours du grand séminaire de Saint-Sulpice pendant quatre ans, mais choisit d'abandonner la prêtrise et de quitter l'Eglise par honnêteté intellectuelle. Curieux de science, Ernest Renan est immédiatement convaincu par les hypothèses de Darwin sur l'évolution des espèces. Il établit un rapport étroit entre les religions et leurs racines ethnico-géographiques. Une part essentielle de son œuvre est d'ailleurs consacrée aux religions avec par exemple son Histoire des origines du christianisme (7 volumes de 1863 à 1881) dont le premier tome est consacré à la Vie de Jésus (1863). Ce livre qui marque les milieux intellectuels de son vivant contient la thèse, alors controversée, selon laquelle la biographie de Jésus doit être comprise comme celle de n'importe quel autre homme, et la Bible comme devant être soumise à un examen critique comme n'importe quel autre document historique. Ceci déclenche des débats passionnés et la colère de l'Église catholique. Ernest Renan est considéré aujourd'hui comme un intellectuel de référence avec des textes comme Prière sur l'Acropole (1865) ou Qu'est-ce qu'une nation ? (1882). Dans ce discours, Renan s'efforce de distinguer race et nation, soutenant que, à la différence des races, les nations s'étaient formées sur la base d'une association volontaire d'individus avec un passé commun : ce qui constitue une nation, ce n'est pas de parler la même langue, ni d'appartenir à un groupe ethnographique commun, c'est d'« avoir fait de grandes choses ensemble, vouloir en faire encore » dans l'avenir. Le monde.fr.

[82] مستشرق فرنسي.

[83] Laurens. Renan en son temps : la place de l'Islam dans son œuvre. In: Cahiers de l'Association internationale des études françaises, 2010, n°62. pp. 73-92;

« L'islam est le dédain de la science, la suppression de la société civile ; c'est l'épouvantable simplicité de la pensée sémitique, rétrécissant le cerveau humain, le fermant à toute idée délicate, à tout sentiment fin, à toute recherche rationnelle, pour le mettre en face d'une éternelle tautologie : « Dieu et Dieu ».[84]

ويصف المفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" فكر "رينان" بكونه التجسيد المثالي للاستشراق[85]. بحيث أنه يقول في المقطع الأول – أي رينان- إ- إن الإسلام هو النفي الأكثر اكتمالا لأوروبا، وإن الإسلام هو التعصب". وهذا متناقض مع مبادئ الإسلام ودعوته إلى التعايش والتآخي والاتحاد ضد الحاجة والتعاون على البر والتقوى في كثير من الآيات والأحاديث الصحيحة. وبالتالي فما يقع في المجتمع الإسلامي، لا يجب أن ينسب كله إلى المسلمين كلهم. وليس الباحث أو المنظر الكفء هو من يلقي بالأحكام المسبقة، المتعصبة، دون الولوج إلى الحقيقة الحقة.

صحيح أن " الاستشراق ظاهرة قد حدثت نتيجة أسباب نظرية وعلمية لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا، فإن التعامل الموضوعي معها، درسا وتقويما، يعد من المطالب العلمية الواجبة بل المتعينة."86 لكن، إذا كانت الغاية من الظاهرة هو تلطيخ صورة الشرق فقط، فذلك لن يدخل قط ضمن الحجج التي قدهما "المستعمر" حين تطاول على ثقافات ومجتمعات شتى، مثلا. لم يقل المستعمر في خطاباته المتكررة أنه اقتحم هذه الثقافة أو تلك طمعا في ثرواتها، لن يليق ذلك به، إنه يتبرأ من هذا السلوك العدواني، ينفيه، يرفضه، يعوضه بخطاب آخر، جميل، يستقطب الجماهير وغير الوطنيين.

لهذا، فالقول بعدم مشروعية المثقف الغربي في اتهام الشرق، بل الإسلام مباشرة، كما هو الشأن بالنسبة لرينان وأضرابه، لا محال مطلب رئيس، وسؤال محير.

إذ أنه لو كان الغرض من الاستعمار هو نشر الثقافة والحضارة لدى الشعوب "البربرية"، "الجاهلة"، - حسب ذريعته- فهذا لا يتجسد في الواقع. أي إنه بعبارة أخرى، إفريقيا القرن العشرين، ليست هي إفريقيا القرن الواحد والعشرين، وبهذا يمكننا القول بأن ما كان يميز المجتمعات الإفريقية في القرن العشرين قد تغير سواء كان التغير نسبيا أو كليا، فالمهم أنه تغير، والصواب أن يتغير من حالة أدنى إلى حالة أعلى، سواء تعلق الأمر بالثقافة أو معدل الدخل الفردي أو ما شابه ذلك؛ لكن ما الوضع الذي وصل إليه الفكر الاستعماري القاضي بانتشال

---

84 نفس المرجع، نفس الصفحة

86 الشرقاوي، عبد الله، محمد، الاستشراق، دراسات تحليلية و تقويمية، كلية دار العلوم-جامعة القاهرة، ص.3.

الشعوب غير الأوربية من التخلف والجهل والأسطورة حاليا؟ بصيغة أخرى، هل تطور هذا الفكر إلى الأفضل أو الأسوأ؟ إذا تطور للأفضل- كما هو شأن إيطاليا وليبيا- فهذا ينبأ بأخبار سارة. أما إذا كان العكس، أي أن ذلك الفكر الجميل وتلك الخطابات الإغريقية، الخطابية، السفسطائية، قد تحولت، بل مسخت، وغدت أكثر انحدارا وتعاليا، فالأمر يدعو للسؤال لا محال.

و حتى نكون موضوعيين، فالشرق الإسلامي- (و شمال إفريقيا) مع أن المجتمعات الإسلامية غير العربية تشكل جزءا لا يتجزأ من اهتمامنا و قصدنا، إلا أن فكرة الإسلام فيها غائبة عنا، و لا نعرف تاريخها و ملابساتها الثقافية، بل لم يسعنا الوقت للتطرق لها على مستوى هذا العمل و هذا لا يدخل ضمن مشروعنا بقدر ما يرد الأمر إلى أهله و العارفين به كالمفكر البوسني الكبير "علي عزت بيجوفيتش" مثلا، حتى نلتقي في نقطة ما تهمنا، أما إذا كانت -فكرة الإسلام- نفعية على غرار رفيقاتها من الأيديولوجيات المنافية للإسلام و جذوره و تعبث في تاريخه و سطوره، فنحن لسنا في حاجة لها- حاجة ماسة أقول- لأن لنا من الموروث ما يخول لنا، عن طريق نقده نقدا بناء و ليس مكررا متكررا، تكوين رؤية واضحة لقضية دورنا و صورتنا في العالم و لديه- كان ليكون- الشرق الاسلامي- أفضل بكثير من وضع ما بعد الاستعمار. فالاستعمار أضعفه، واستنزف ثرواته، وطمس هويته، بل خلق عنده نوعا من الانفصام والثنائية، بل الثلاثيات والرباعيات من المذاهب والتيارات الجارفة.

أثر الاستعمار في واقع المجتمع العربي المسلم

إن الاستعمار أضفى على العالم العربي نوعا من الإحباط واليأس والغربة. إنه وبدون منازع وبغض النظر عن المقدمات الطللية المدهشة التي أوردها المستعمر في ملفه هذا، وبصرف النظر كذلك عما شيده من عمران وبنيات تحتية التي كانت تخدم مصلحته الخاصة طبعا، فإن قراره القاضي بالتدخل في الشؤون السياسية والثقافية والاقتصادية للمستعمرات، واستقراره على أرضها بالقوة تارة وبالسفسطة تارة أخرى، وادعاؤه الإصلاح والتثقيف وانتشال هذه المستعمرات من الجهل والتخلف، لغلطة مأساوية.

إنه دفع بالإنسان العربي إلى الهوة، إلى التشتت، إلى الانهيار، إلى الانتحار الحضاري وفقدان الهوية والدين والتراث. ففي المغرب مثلا، " شجعت اتفاقيات 1901-1902 بين المغرب وفرنسا، الدولة الأخيرة-أي فرنسا- على بدء حملة دبلوماسية هادفة لتمهيد السبيل أمام

السيطرة الفرنسية على المغرب. وهكذا تمكنت من الاتفاق مع ايطاليا على تبادل المصالح في كل من المغرب وليبيا-اتفاق 30 **يونيو**، ونقط 3 نوفمبر"87 .

وتوالت المفاوضات حول المستعمرات من الجانب الفرنسي، البريطاني والايطالي. ففي" 08 أبريل 1904، وقع الاتفاق المتعلق بالمغرب ومصر، حيث حصلت فرنسا بواسطته على حرية العمل في المغرب دون معارضة بريطانية، مقابل تخلي فرنسا عن مصر للنفوذ الانجليزي."88 وقد اعتبر المغاربة هذه الاتفاقية بمثابة عقد بيع المغرب لفرنسا، وأن الإنجليز والفرنسيين تصرفوا في مصير شعب لم يأخذوا رأيه مسبقا"89.

والأكثر –وحشية من ذلك- عانى المواطن المغربي معاناة كبيرة جراء هذا الاقتحام اللا مشروع واللاإنساني لكينونته. وتزايدت المفارقات الاجتماعية حتى أن المغرب أصبح دولتين، وقع هناك "اصطدام قوي لثقافتين"، لحضارتين، وسميناه اصطدام لأنه غير مشروع، حتى أن المواطن لم يقرر، ولم يكن طرفا من المفاوضات، ليفاجأ بكونه أصبح دخيلا، مهددا في وجوده وفي ثقافته وفي حقوقه. ويقول الكاتب الأول للمفوضية الفرنسية "سان أولير S. Aulaire في 23 يوليوز 1904:

" إن الامتيازات لن تمنح إلا للفرنسيين أما الآخرون فعليهم أن يقنعوا في أحسن الأحوال ببعض الفتات"90. ألا يدعو هذا التصريح للغضب؟ للضحك؟

87 الخديمي، علال، التدخل الأجنبي و المقاومة بالمغرب.1894-1910، حادثة الدار البيضاء و احتلال الشاوية، أفريقيا الشرق،2006. ص.47

88 نفس المرجع، نفس الصفحة.

89 نفس المرجع، نفس الصفحة.

90 نفس المرجع،ص.51.

الفصل الخامس

المثقف والجمهور:

أين يكمن أصل الجدل؟

المثقف والجمهور: أين يكمن أصل الجدل؟

هل أصبح الإنسان العربي إنساناً جمهوراً؟

يعتبر ادوارد سعيد من بين المثقفين الذين عملوا على الدفاع عن الشرق الإسلامي، ومجابهة التيارات العنيفة والمتعصبة التي تندد بضعف وقصور الذهنية العربية. ويذهب ادوارد سعيد إلى الاعتراف بأن نشأة الفكر الاستشراقي كان مبدئيا مع "رينان" المستشرق الفرنسي.

هل أصبح الإنسان العربي "إنسان جمهورا[91]"؟ "

لا شك في أن المثقف هو المحرك الرئيس والحيوي داخل كل مجتمع بشري، فهو لسانه، ووجدانه. إنه ذلك الشخص الذي يعاني ما يعانيه الذين " استضعفوا في الأرض"[92]، ويربط مصيره بمصير الجماعة أو الأمة. إنه ليس فقط جامعيا أو جمعويا، إنه تلك الذات التي تجمع بين الكل وتجعل الذاتية جزءا فقط، وهو لا ينفصل عن هذا الكل.

والأكثر من ذلك، هو إن المثقف لا يقف وقفة المتأمل، الناظر بإعجاب أو باشمئزاز إلى الواقع، واقعه وواقع أمته،-كما كان لدى بعض المفكرين الإنجليز[93]- بل هو الباحث و باستمرار عن سبل أكثر ضمانا لاستقرار هذا الواقع في شتى مناحي الحياة المجتمعية و التهيؤ لمجابهة أي خطر كيف ما كان نوعه من الممكن أن يهدد الأمة أو يهدد "كينونتها و استقرارها"[94] الداخلي – ضمان الأمن و العدالة الاجتماعية و الوقوف ضد مسببات الحروب الأهلية، التطرف الديني و العنصرية...الخ - أو الخارجي- و يجسده بالمقام الأول "الاستعمار" بكونه نتاجا للحركة الإمبريالية الهادفة إلى التوسع المجالي بهدف استغلال طاقات الشعوب و ثرواتها تحت ذريعة "التثقيف" و "جلب

---

91 « Man mass » أو الإنسان الجمهور، أنشأ هذا المصطلح في الأدب "جوزي أورتيجا" ويعني به أن الجمهور يتحول إلى وحدات مجهولة الهوية، لا وجه لها، أو إلى مجموعة من الناس فقدوا شخصياتهم و تقلصوا إلى مجرد كتلة غير متميزة المعالم. و "الإنسان الجمهور" هو النتاج النهائي لحضارة بدون ثقافة، متحرر من الشك و التفصيلات الثقافية. أنظر، José Ortiga Y.The Revolt of the masses.NY.Norton، أشار إلي محمد يوسف عدس في ترجمته لكتاب "الإسلام بين الشرق و الغرب" لعلي عزت بيجوفيتش.دار الشروق،2019.ص.117.

92 سلوم، توفيق: نحو رؤية ماركسية للتراث العربي، منشورات دار الفكر الجديد، بيروت،1988، ص.95-96.

93 سعيد، إدوارد، المثقف و السلطة، رؤية للنشر و التوزيع، 2006، ص.19.

94 صالح، هاشم، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ ص.6.

الحضارة" و "دفع الشرور" عن هذه الشعوب، كما تجسده الحروب التي شهدها العالم، كالحربين العالميتين و حرب "الفييتنام" و الحرب على العراق و ما يقع في الشرق الأوسط ...الخ.

والثقافة "ظاهرة" ليست بالجديدة. فالمجتمعات البشرية البدائية كما يخبرنا بذلك الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي "ويل دورانت"95 كانت و لا تزال- في بعض المناطق من العالم كقبائل "البوشمان"[96] - هي الأخرى تملك ثقافة خاصة بها، إذ أن لكل قبيلة طقوسها وأعرافها التي تتوارث جيلا عن جيل.

والجدير بالذكر، هو إن هذا جزء من الثقافة فقط، لأن البدائيين، بالرغم من أنهم عاشوا ويعيشون ضمن ثقافة موحدة- أي معتقدات موحدة، طعام مشترك، طقوس الأعراس، النظرة إلى الغريب...- إلا أن "الإبداع"[97] يغيب فيها، وبالتالي، فقولنا إن ثقافة القبائل البدائية في مناطق "إفريقيا"[98] أو "أستراليا"[99] مثلا، هي في الواقع ليست إلا جزءا من الثقافة بالمعنى الشامل، أو أنها ثقافة جامدة، إلا لأنها تفتقر إلى الإبداع، الشيء الذي يحيلنا على طرح السؤال التالي: "من هو" المثقف" وما دوره في المجتمع؟"

المثقف: منتشل الأمم من الانحدار

إن المثقف هو من ينتج الأدب. و "ليس الأدب، كما قال الدكتور والفيلسوف المصري، "حسن حنفي"، ليس مجرد قصص وشعر ومسرح، بل أيضا تحليل فلسفي لتجارب الحياة وبحث عن دلالاتها كشعر "المعري" و "شكسبير" و "جوته" و"نزار قباني" و "أمل دنقل" و "صلاح عبد الصبور"...وعلى هذا النحو، تخرج الفلسفة من "النخبة" إلى "الجماهير"، ومن "الخاصة " إلى

---

95 دورانت، أشار إليه ، علي الوردي، في مهزلة العقل البشري، ص. 33.

96 نفس المرجع، نفس الصفحة.

97 يقول "توينبي" إن " الصفة الرئيسية التي تميز المدنية عن الحياة البدائية هي الإبداع. فالحياة البدائية يسودها التقليد بينما يسود الإبداع حياة المدنية." Toyenbee, a study of History (ab) P.49 أشار له الدكتور الوردي علي، في: مهزلة العقل البشري، ص.22.

98 نفس المرجع.

99نفس المرجع.

"العامة"، دون أن تفقد دقتها وعمقها، وقد امتازت فلسفات بالوضوح والبساطة، مثل فلسفة التنوير وفلسفة "برجسون"."[100]

والحال أن "تغيير الجمهور يقتضي تغيير مستوى الخطاب"[101]، ولعل هذا ما وضحه أو حاول توضيحه الدكتور "حنفي"، وهذا ما يقصد بإخراج الفلسفة من دائرة النخبوية، وذلك اعتمادا على الأدب، بما في ذلك الشعر والمسرح والرواية. والأدب أظهر ميله عبر التاريخ إلى وصف هذا "المثقف الشبح" الذي لا يعرف حتى تقاسيم وجهه أحيانا، فتتكاثر التعاريف إلى حد التضارب والتعارض مع اكتساب وارتداء ثوب أيديولوجي أو عرقي متطرف. والتطرف هو مشكل الوحدة، بل السلام.

ويرى "جون كيري" في كتابه الموسوم: " المثقفون والجماهير: رواية الكبرياء والتحيز في عيون المفكرين من الأدباء من عام 1880 إلى 1939."[102]، أن ثمة مفكرين بريطانيين من أمثال " وولز" و "جيسينج"، واللذان كانوا يمقتون نشأة المجتمعات الجماهيرية الحديثة، وينعون بعض مظاهرها مثل ما يسمى بـ "الرجل العادي"، "ضواحي المدن"، و"أذواق الطبقة الوسطى"، مقابل الإشادة والمطالبة بحلول "أرستقراطية طبيعية محلها "- أي محل المجتمعات الجماهيرية الحديثة. وتعتبر الأرستقراطية، وهي سمتها الأساسية، "جميع الناس كاذبون."[103] وبالتالي، فمفهوم الثقة والشفقة عندها غائبة تماما.

و هذا التصريح "المتطرف" و "المتحيز" – حتى نعيد عبارة "جون كيري" - القاضي بوضع حد أو فعل قطيعة مع الجمهور، بدعوى أن فكره و ممارساته مبتذلة و "عادية" كما تحيل على ذلك عبارة "الرجل العادي"، و التخلي على المستضعفين و المحتاجين و البؤساء – على طريقة الفلسفة *النيتشوية*'[104]" و مفهومه ل "الإنسان الأعلى" خصوصا في خضم قوله بموت "الإله"، الذي هو مبدأ يتنافى و ينفي وجود قوة أسمى و أعظم من الإنسان القوي الذي لا يرضى بالذل و

---

100 حنفي، حسن، الهوية، ص.18.

101 سعيد إدوارد، المثقف و السلطة، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع.ص.14.

102 John Carey, The intellectuals and masses, pride and prejudice, among the literary intelligentsia, 1880-1939.New York. St. Martin's Press.1993. المثقف و السلطة.ص.22.

103 زكرياء، فؤاد، نيتشه، مؤسسة هنداوي، 2017، ص.167.

104 زكرياء، فؤاد، نيتشه، ص.166-173.

الضعف، و معاملة "الكلاب"، هذا الإنسان القاسي، العنيف، و الذي لا يجب أن يكون "شفوقا"، و هو نفس الشيء الذي تظهره بجلاء عبارة "ضواحي المدن"، أي الفئة المهمشة و المستضعفة و المنفية في غياهب النسيان، و التي هي- من وجهة نظر "نيتشه" مجموعة بشرية ضعيفة و لا تملك إرادة القوة. وبالتالي يجب التخلي عنها وتركها و شأنها بل وكرهها وممارسة العنف ضدها، إن تطلب الأمر ذلك. هذا التصريح بضرورة تعويض الجماهير الحديثة بأرستقراطية متعصبة، ليس ولم يكن حلا عادلا.

والدليل على ذلك - بحيث أن الآراء دائما ما تتضارب وتختلف حدة تضاربها كذلك - هو أن "بول جونسون" يقول" *إننا إذا أخذنا عينة عشوائية لا تزيد عن عشرة من السابلة، فسوف نجد لديهم من الآراء المعقولة في المسائل الأخلاقية والسياسة ما يضاهي آراء أي قطاع يمثل طبقة المثقفين برمتها*"[105].

والأكثر من ذلك، أن المفكر والناقد والروائي "الولزي"، الماركسي، "رايموند وليامز" في كتابه "كلمات أساسية" يقول" *إن الكلمات الانجليزية التي تعني "المفكرين" والصيغة الفكرية وطبقة المفكرين، كانت ذات دلالات تحط من قدرها، وقد ظلت هذه الدلالات سائدة حتى منتصف القرن العشرين، والواضح أن هذه الدلالات لا تزال قائمة*"[106]. وهذا التعريف – تعريف المثقف - لا يتباين- نوعا ما- مع ما صرح به "إدوارد سعيد" حين قال بأنه يتصور المثقف " في صورة المنفي والهامشي والهاوي، وفي صورة مؤلف لغة تحاول أن تنطق بالصدق في وجه السلطة"[107].

ويقول المناضل الماركسي، الصحفي والفيلسوف السياسي، "أنطونيو جرامشي" في مذكرات سجنه – *حيث سجنه "موسوليني" من 1926 إلى غاية 1937*- : " إن جميع الناس مفكرون، ومن ثم نستطيع أن نقول: ولكن وظيفة المثقف أو المفكر في المجتمع لا يقوم بها كل الناس"[108]. في

---

[105] Paul Johson, intellectuals, London : Weiderfeld and Nicholson, 1988.P.342. أشار له إدوارد سعيد في "المثقف و السلطة.

[106] Raymon Williams, Keywords, A vocabulary of culture and society, 1976, rprt, New York, Oxford University Press, 1985.P.170 - أشار إليه إدوارد سعيد في "المثقف و السلطة". ترجمة و تقديم الدكتور محمد عناني،رؤية للنشر و التوزيع.. ص.19.

[107] سعيد، إدوارد المثقف و السلطة، ترجمة محمد عناني.ص.26.

[108] Antonio Gramsci, The Prison Notebooks, P.9 أشير إليه من طرف إدوارد سعيد، مصدر انف الذكر،ص.32.

إشارة إلى نوع من الاختلاف "غير المبدئي"- بناء على قوله وتصوره لـ "المفكر" خصوصا باعتبار جميع الناس- الذي من القائم أن يفرز لنا صنفين أو أكثر من المثقفين.

وهو الشيء الذي أقره "جرامشي"، بحيث يميز بين نوعين من المثقفين أو المفكرين. و هما "المثقف التقليدي"، و الذي يمثله ب"المعلم" و "الكاهن" و "الإداري"، فهؤلاء يكررون تقريبا و غالبا نفس العمل، و في كل مجتمع، فيبدو دور المثقف "التقليدي" كلاسيكيا، لا يتجاوز حدودا مسطرة و بدقة- فالمعلم غالبا ما يعمل على تنزيل ما جاءت به المناهج و البرامج الدراسية، و هي عملية مركبة، بحيث من القائم ألا يتوفر المعلم على وقت كاف لمحاولة إخراج المتعلمين من صرامة المقرر الدراسي، أو المحاضرة الجامعية، أو الدرس الرياضي، إلى أرضية أخرى، عالم آخر مثلا، يجسد بالنسبة للفاعلين - المعلم و المتعلم - ضربا من ضروب "إعمال الفكر" – أو التفكير- بالمعنى الذي نجده مثلا عند النوع أو الصنف الثاني من المثقفين الذي هو المثقف "المنسق". فهذا الأخير، يتجاوز التعاطي الظاهر للفكر، ويتعاطاه بعمق أكثر، ونباهة أشد، وإصرارا أعظم، وحيرة أشد. بحيث إن " أي نظرية يقدمها فيلسوف إجابة سببت له حيرة وقلق، وراح يبحث عن طريق يقضي به على الحيرة وذلك القلق. وتتميز المشكلة الفلسفية بأنها موضوع معقد غامض يواجهه الفيلسوف، وليس الغموض هنا ناشئا عن جهله بالمعطيات التي قد تساعده على حل المشكلة، إذ أن المشكلة التي يكون الجهل سبب غموضها ليست مشكلة فلسفية، لكننا نسمي المشكلة "فلسفية" حين تكون على علم تام بكل الوقائع اللازمة كلها، ثم نظل بعد ذلك في حيرة وقلق، لا ندري ما طريق حلها"[109].

ويقول إدوار سعيد في هذا السياق، واصفا المثقف: إن " أبعد ما يتصور، وجود مثقف يسعى إلى جعل جمهوره يشعر بالرضا والارتياح، فالمقصد الحقيقي هو إثارة الحرج، والمعارضة، بل والاستياء"[110]. ويعتبر "جرامشي" هذا الصنف الأخير من المثقفين، أكثر مشاركة في النشاط الاجتماعي، فهم دائمو المساهمة في "تغيير الأفكار والآراء."[111].

109 الدكتور زيدان، محمود، مناهج البحث الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص. 11.

110 المثقف و السلطة، مصدر انف الذكر،ص.45.

111 نفس المرجع، ص.32-34.

و خلاصة القول إن "هناك هوة ساحقة بين المثقف بصفته إنسانا أكثر مسؤولية من الناس الآخرين و الذين يسمون "جماهيرا" La foule"[112]، حتى أن الكثيرين ذهبوا بعيدا في ثنايا هذا التقسيم ليصابوا بالغلو و التطرف، فيقطعون قطعا مع المواطن العادي و مواطن الريف و هامش المدينة كما هو الشأن بالنسبة للفلاسفة و المفكرين "الإنجليز" من أمثال "وولز" و "جيسينغ".كما إن التقسيم الذي أجراه "جرامشي" يتعارض كليا مع ما صرح به "جونسون" حين أعاد الاعتبار بعنف مبالغ فيه للمواطن العادي- حسب ما جاء على لسان إدوارد سعيد - بحيث أنه نفى الدور المركزي لـ"المثقف" Intellectuel، وأطاح من شأن ثلة من المثقفين- حتى إن "بندا" في نفس السياق، تردد كثيرا في الإعلان عن بعض نماذج المثقفين بالنسبة له و أشار إلى "سقراط" و "يسوع المسيح" عليه السلام و "رينان"؛ صديقنا المستشرق الذي فعل ما فعل و قال ما قال فينا، و نحن صامتون نتهافت تارة على المواد الغذائية و نتحارب من أجل الظفر بالذهب الأسود أو تأشيرة سفر إلى "المالديف".- حين قال بإمكانية صواب و عقلانية انطباعات وآراء عشرة أشخاص عامة- مارة- تم اختيارهم بعشوائية، مشيرا إلى أن هذه العقلانية و هذا الصواب قد يكون- بل هو كذلك حسب ما قال- أفضل بكثير من جميع آراء جميع المثقفين.

ومن سيكتب من غير المثقف إذا؟ الموظف الحكومي؟ لا، بالطبع، فلكل مقام مقال. فالموظف لا يكتب في أحسن الأحوال إلا تقريرا أو استقالة، وفي بعض الأحيان، وهو شيء نادر، بعض المشاعر على هوامش المذكرات. أما المثقف، فيسخر معرفته وتجاربه ووقته للكتابة والتفكير من أجل المشاركة والتغيير. ونجد على مر العصور أناسا مزجوا بين مزاولة الفكر والقيام بمتطلبات الحياة المعيشية أو المهنية، كما هو الشأن للعديدين. حيث كان "التجار العرب هم غالبا علماء عرب... ومن هنا فليس غريبا وليست مصادفة أن نجد جمهورا كبيرا من "أعلام المعتزلة" وعلمائها، تجارا وأصحاب حرف وصناعات، ومن ثم أن نجدهم " فرسان الفكر القومي العربي"، والمنتصرين لمقام العقل في تراثنا"[113].

لنستشهد بـ " محمد عابد الجابري" أيضا فيما يخص الجمع بين السياسة، التدريس وممارسة الفكر، إذ كان الجابري عضوا تأسيسيا في حزب الاستقلال؛ كما درس بالجامعة، ونقد العقل

---

[112] نقله الشريف زروخي (سبق ذكره)عن محمد عابد الجابري: نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 1997،ص.30. ويقول الجابري: إن "الثغرة الخطيرة التي تعاني منها النخبة العصرية في كثير من البلدان العربية، إن لم أقل كلها، هي غياب العلاقة العضوية بينها وبين جماهير الشعب."

[113] طرابشي، جورج، مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقي،2012، ص.35.

العربي، أي أنه انتقل مما هو شخصي وذاتي واجتماعي وسياسي إلى ما هو فريد وقومي ومشترك وأصيل وقضى وقتا طويلا في محاولة انتشال الفكر العربي وبالتالي الأمة العربية من مشاكلها المرهقة و التي تجبرها على الرجوع تدريجيا إلى الخلف، بعد أن كانت الحضارة العربية الإسلامية يضرب بها المثل في عصور مضت.

فالعرب "أمة أقدم من اسمها الذي تعرف به اليوم، لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامي التي تفرع منها "الكلدانيون" و "الآشوريون" و "الكنعانيون" و "العبرانيون"، وسائر الأمم السامية '*Sémitique*'[114] أو '*Sémite*'[115] والتي تعرف عموما بانتمائها إلى نفس الجذور كما يبين ذلك بدقة 'M.C. Brockelmann'[116].

لكن ما الدور الذي يجب أن يلعبه المثقف فيما يخص مسألة التراث؟

إن دعوة المثقف العربي الإسلامي لإعادة إحياء ذلك الجزء "المعقول" أو "العلمي" من التراث، مدافعا عن أطروحته بشتى الطرق، بعد أن انتقى بذلك من التراث كله بعضا منه بدعوى أنه الجزء الذي من شانه المضي قدما بالمجتمع؛ بل و الذي يتماشى و متطلبات العصر ظنا منه أنه سيكون بمثابة رد فعل تجاه الأيديولوجيات المعادية له- و بالتالي يرى أنه لا جدوى من إحياء ذلك الجزء المظلم و الذي أصبح غائرا من التراث لأنه غير إيجابي على حد قول هذا المجدد- هو بمثابة بدعة لا تقل خطورة عن "من ينتقي من القران الكريم ما يتماشى و أهوائه"[117].

إن تحقيق أي مثقف-وخصوصا المثقف العربي الإسلامي- لهذا المراد، إذا تمكن من الوصول إلى هذه الغاية فليعلم أن ذلك غير كافي بتاتا، وفيه نكرانا للذات والتنكر للماضي وممارسة التمييز في الانتقاء. لأن تمكن المثقف، أو الناقد أو غيرهم- أي من تبنوا فكره ومبادئه- من نقد جانب من التراث نقدا قويا، عنيفا وفقا لماضي معين وسياق محدد، مقابل الإشادة بجدوى جانب اخر

---

[114] Qui appartient à un groupe de langues possédant des racines de trois consonnes servant de support aux éléments vocaliques. L'hébreux, l'arabe sont des langues sémitiques. Le Robert Micro.1998.

[115] Membre d'un groupe ethnique originaire d'Asie occidentale et parlant des langues apparentées. Robert Micro.

[116] M.C.Brockelmann, Précis de Linguistique Sémitique, traduit de l'allemand (avec remaniement de l'auteur) par W.Marçais, directeur de la Medersa d'Alger et M.Cohen, agrégé de l'université.Librairie Paul GEUTHNER,Paris, 1910 .

[117] " أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"، سورة البقرة، الآية 85.

يقابله ويعارضه مبدئيا، فإنه لم يحرز سوى "عملا أكاديميا محترما"[118]، من الأرجح أن عددا من أمثاله لا يزالون في أرشيف جامعاتنا، تتآكل صفحاتهم ببطء. في جامعاتنا المنسية...

فشل المفكر العربي في التصدي لتيار للحضارة الغربية

لكل حضارة خصوصياتها التي لا يمكن استئصالها منها، فهي التي تشكل هويتها، ووجودها المستقل، على الأقل في إطار مقارنة بينها وبين حضارات غيرها. فالحضارة "جهاز مترابط، لا يمكن تجزئته أو فصل أعضائه بعضها عن بعض. فالحضارة حين ترد، تأتي بحسناتها وسيئاتها. وليس في الإمكان وضع رقيب على الحدود يختار لنا منها الحسن ويطرح السيئ. ومعنى هذا أنها تيار جارف، لا يمكن الوقوف في وجهه"[119]. وبناء على هذا القول، بإمكاننا القول بأن ما سعى له مجموعة من المفكرين الغربيين المستشرقين في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، فنبشره أن ذلك غير ممكن، خصوصا وأن الحضارة العربية الإسلامية لها هي الأخرى أنصارها. حتى أن "جورج طرابيشي" صرح عاليا قائلا: "كيف نتحدث عن مذبحة للتراث في ثقافة تنتمي، في مكونات هويتها وفي زمنيتها معا، إلى أرومتها التراثية انتماء يكاد يعز أن نقع على نظير له في القوة والمتانة في ثقافة أية أمة أخرى؟"[120] والحضارة العربية الإسلامية هي من " أغنى ثقافات العالم بذخيرتها من التراث"[121]. لكن، للأسف لم يتمكن العرب المسلمون الصمود أمام تيار الحضارة الغربية. ويكفي أن نلقي نظرة من فوق على شوارعنا، جامعاتنا، عمراننا، لباسنا، عاداتنا بل وحتى لغاتنا. ليتبين لنا إلى أي حد نحن مهزومون، غير قادرين على الانتاج وغير مبالون بثقافتنا.

التنقيب عن عصر تنوير عربي إسلامي

يركز الدكتور هاشم صالح في كتابه الموسوم ب: "الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟"، -*والظاهر مبدئيا في تركيبة العنوان الدلالية، أن هناك تناقض جلي لأن "العالم العربي" ومفهوم "التنوير" شيئان متناقضان، لأنهما ينتميان إلى مجالات جغرافية وثقافية وعقائدية خصوصا، مختلفة، وتاريخ مختلف*- يركز الكاتب على كون "النص القرآني"، فيما

118 ربما حاول أحدهم بكل الوسائل أن يصبح مفكرا يشار إليه بالبنان، و بذل من اجل ذلك الغالي و الرخيص، و سهر الليالي، ثم لم يتوصل إلى أكثر من دارس جيد أو أكاديمي مفيد. هاشم صالح، الانسداد التاريخي... ص.5-6.

119 الوردي، علي، مهزلة العقل البشري، دار كوفان للنشر، الطبعة الثانية، 1994، ص.16.

120 طرابيشي، جورج، مذبحة التراث في الثقافة العربية الإسلامية، ص.7.

121 نفس المرجع، نفس الصفحة.

يخص الحضارة العربية الإسلامية، يشكل "عائقا في التطور". وهو بذلك سبب الانسداد التاريخي الذي يحول دون انعتاق الأمة العربية من دوامات الجمود والأصولية الرجعية، التي لا تواكب التطور العلمي والمعرفي كما في باقي بقاع المعمور، والتي قطعت مع الدين- بعنف- نظرا للماضي المليء بعيوب الكنيسة وسلطة رجال الدين الذي اتخذوا من المسيحية طريقا لتبرير عدوانهم وظلمهم تجاه المواطنين.

ويقارن الدكتور صالح هذه الوضعية- أي ما تعيشه الأمة العربية من نكسات وأزمات كان أبرزها هزيمة 1967- بما عاشته أوربا في القرون الوسطى من تعذيب وإدانة لمواطنيها "باسم المسيحية". والأكثر تناقضا هو إن أوربا شهدت حروبا مأساوية، سميت ب "حرب الأديان"[122]- " La guerre des religions" وهي عبارة تثير الغضب، لما تنطوي عليه من شحنات عرقية وتعصبية. فالدين عند الله واحد ويتنافى مع العنف والتعصب بشتى أنواعه.

و الحال إن هذه الرؤية أو هذه المقاربة الكلاسيكية التي يقر بفعاليتها و جدواها الدكتور هاشم صالح و غيره من دعاة التحديث على "الطريقة الغربية"[123] من أمثال الدكتور "محمد أركون"[124] أو فرج أنطون" الذي يعد أول من ترجم فلسفة نيتشه إلى العربية"[125] و كان من بين المثقفين المنددين بتبني 'الفلسفة النيتشوية' في الشرق الإسلامي، كوسيلة للخروج من التخلف و الانحطاط. إذ "يحدد لنا "أنطون" مكانة وقيمة ودور فلسفة نيتشه في أوربا وأثرها النقدي في رفض العقائد القديمة"[126] وهذه رؤية ليست بالغريبة في أوساط "المثقفين العرب"، بحيث إن "فرح أنطون"[127] بالإضافة إلى "سلامة موسى"[128]، حتى نقتصر عن الاثنان- ينتميان إلى تيار

---

[122] صالح هاشم، الانسداد التاريخي، لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ ص.9.

[123] أنظر مقال الدكتور هاشم صالح، العالم العربي و استحقاقات التنوير، مجلة مؤمنون بلا حدود. 26 سبتمبر 2016.

[124] اعتبر المنتقدون أنها-كتابات أركون- كانت تسعى إلى نزع الثقة والقدسية عن النص الديني واعتباره قابلا للأخذ والرد." الهاني، كريم، محمد أركون... المفكر الذي لم يهادن التراث و الفكر الإسلامي، مرايانا، 31 يناير 2020. http://marayana.com/

[125] د.عطية، عبد الحليم، أحمد، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، الفكر المعاصر، سلسلة أوراق فلسفية ،دار الفارابي 2010.ص9..

[126] نفس المرجع، نفس الصفحة.

[127] حنفي، حسن، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص.30-31.

[128] موسى، سلامة ، اليوم والغد، المطبعة العصرية، القاهرة، 1927، ص 241. 257.

"الهوية العلمية"[129] أو العلمانية وبالتالي فلن يجدوا أرقى من فلسفة نيتشه للتعبير عن قوتهم. بحيث يقول "عطية" بأن "التعريف بفلسفته-أي نيتشه- يمكن أن يؤدي عندنا دورا أساسيا في رفض المعتقدات والتقاليد السائدة التي أدت إلى التأخر."[130].- بل الأكثر من ذلك والأقدم منه أيضا- زمنيا- ما أقره "المعتزلة"[131] كمذهب يدعو إلى تأويل النص القرآني بعقلانية، مقابل التزام "الحنابلة" و "الأشاعرة" بالكف عن التأويل وإغلاق ملف تاريخية القران مباشرة بعد انتصارهم على المعتزلة.

هذا التصور لحال الأمة العربية وأزمتها الكامنة في "النص القرآني"، كما قال الدكتور صالح، يتضمن تناقضا. وذلك لأنه يهمل دور المثقف "التقليدي"[132] وإمكانية تحوله إلى مثقف "منسق"[133] في ظروف معينة وهذا جائز وممكن. وفي هذه الحالة، لن نكون أكثر حاجة إلى مفكر أو مثقف أكثر التزاما ويحمل هموم الأمة كلها أو هموم الإنسانية جمعاء، وسيلعب المثقف التقليدي المنتقل إلى درجة من درجات المثقف "المنسق"، دورا تكميليا، في انتظار التحاقه بمرتبة المثقف الفاعل والمنصهر في حالة الجماعة وهمومها برفق وعقلانية، حتى يتسنى له برفق أيضا أن يمد يد العون لمثقف آخر "تقليدي"، ربما ينتشله من دوامة التكرار والملل. ولا شأن لنا في هذه الحالة لقول بن خلدون بأن "المتأخر يقلد المتقدم"[134].

وبناء على هذا، سيهم المعلم مثلا-باعتباره مثقفا تقليديا كما حسب تصنيف "جرامشي"- بإنشاء مكتبة في الفصل، بعد أن كان الجدران وحده عاريا، يزيد من حدة "الملل"[135] والاختناق وفقدان الأمل واليأس. وسيشكل تعاطي المتعلمين للمطالعة عملية تكوين مثقف "منسق" على يد" مثقف "تقليدي" يحتل درجة من درجات المثقف "المنسق" بفعل إنشاء "المكتبة" - إن الإنسان في حاجة

---

129 حنفي، حسن، الهوية،ص30-31.

130 عطية، عبد الحليم، أحمد، نيتشه و جذور ما بعد الحداثة.، دار الفارابي، 2010،ص.10.

131 يقول الشريف الزروخي (مصدر سابق) نقلا عن الدكتور بدوي، نقلا عن الغزالي(معارج القدس في مدارج معرفة النفس،ص.55-56): " ما أتوا به – أي المعتزلة- إلا من ضعف العقول و قلة البصائر، و إن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تعريف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر.

132 Antonio Gramsci, The Prison Notebook أشار إليه سعيد إدوار، في "المثقف و السلطة"،ترجمة عناني محمد، ص.33

133 نفس المرجع، نفس الصفحة.

134 صالح، هاشم، العالم العربي و استحقاقات التنوير، مؤمنون بلا حددود، 26 سبتمبر 2016.

135 "الملل يولد العنف". توما دوكونانك، الجهل الجديد و مشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع2014..ص.31.

دائمة إلى الإبداع والخيال. ونظرا للطابع والطبيعة الاجتماعية للبشر، وهو أمر إيجابي طبعا وفيه حكمة إلهية حتى إننا لا نكاد نفتح "النص القرآني" حتى تتهاوى علينا الآيات الكريمة الداعية إلى التعاون والاتحاد ضد الحاجة والتكافل الاجتماعي.

هل الفكر وليد "الكارثة" و "المصيبة"؟

يرى الدكتور هاشم صالح أنه لا بد من وقوع "كارثة" أو "زلزال" أو "مصيبة"، حتى يتسنى للفكر الانبثاق. إنه، بالنسبة له، نور منحبس في رحم الظلام وهو عكس الظلام. ويصرح الدكتور صالح قائلا بأنه لو لا تردي المسيحية في القرون الوسطى لما قام الإصلاح الديني ولما ظهر "ما رثن لوثر"[136]. في إشارة إلى كون ما كانت تعيشه أوربا في تلك العصور هو بمثابة كارثة، وجريمة. وبالتالي وجب مسائلتها بل ومحاسبتها وهو بالضبط ما فعل فلاسفة الأنوار حتى نقتصر عليهم، حيث إن الوعي الذي أظهره مثقفو عصر الأنوار واقتصارا على بعض الأسماء التي لا محال خالدة في التاريخ العالمي ك "روسو" ونقده اللامساواة في العهد القديم ومبدأ العقد الاجتماعي الذي يعتبر إنتاجا من بين إنتاجاته باعتباره مثقفا وتنويريا، أو "مونتيسكيو" ومبدأ فصل السلط، أو "ديديرو" وموسوعته، أو صالونات "مدام دو لافاييت" أو أدب "فولتير".. . ولعل مجرد وقوفنا السريع جدا للإشارة إلى هؤلاء الأعلام، فيه تعبير واضح عن المعنى الحقيقي للمثقف، باعتبار السياق.

لقد مثل هذا الجيل من الفلاسفة ما سماه الدكتور صالح: ذلك الفكر المنبثق من كارثة أو أزمة أو ظلام دامس. ويكون ذلك الفكر مضادا ومناهضا ومغيرا للواقع وبالتالي فالدكتور صالح يعرف، أو يحلو له أن يعرف الفكر في سياق الفقرة التالية قائلا:

"إذا كان المقصود بالفكر انبثاق تصور جديد للأشياء أو انهيار تصور سابق، أو سقوط مرحلة وبداية مرحلة، فإن الفكر نادر جدا"[137].

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى عظمة مسؤولية المفكر- الذي جعلنا منه مرادفا- بالرغم من إنه لا توجد هناك مرادفات جذرية مطابقة- للمثقف، اعتبارا للدور الذي يناط به الاثنان في حالة فصلناهم، أو كل واحد منهما على حدا في حالة تركناهم كذلك.

---

136 صالح، هاشم، الانسداد التاريخي.ص.8.

137 نفس المرجع، ص.5

فالمثقف هو المفكر والمفكر هو المثقف والغاية والأهم من ذلك –حتى نعيد عبارة إ. سعيد – "المثقف والسلطة"- هو ما يهدف إليه هذا الشخص الذي سميناه بالمثقف وأوكلناه مهمة تمثيلنا- Représentation. وهي إحدى المعاني المهيمنة في كتاب "المثقف والسلطة"، ذلك الشخص الذي يتعين ويتوجب عليه أخلاقيا وإنسانيا أن يستيقظ " قبل الآخرين، فيرى ما لا يرونه، فيصاب بالهلع للوهلة الأولى. ما إن يكتشف نوعية المهمة وحجم أبعادها حتى يصاب بالجزع وترتعد فرائصه خوفا من مواجهتها. وفيما هو يبحث عن حل لمشكلته الشخصية، وفيما هو يتخبط في تلك العقد والأوجاع، يجد أنه من المستحيل أن يحل مشكلته الشخصية، إذ لم يحل مشكلة الأمة ككل. عندئذ ينصهر في شخصه الخاص بالعام إلى حد "الذوبان" و الظاهر أن الخاص و العام هنا هما بالضبط مقابل الذاتية و الغيرية، أو الإنسان و الإنسان، أو الإنسان باعتباره "مفكرا"-كما قال جرامشي"- من الدرجة الأولى-المثقف التقليدي- أو من الدرجة الثانية – المثقف المنسق- و بالتالي، فالجدير بالقول هو إن الإنسان في حاجة للإنسان دائما، حتى و إن كان بين الأول و الثاني اختلافا ملحوظا و شاسعا- كما هو الشأن مثلا لثنائية "الشرق" و "الغرب" ، فالمفهومين يتداخلان، إذا ما عدنا مثلا لمكان نزول "الديانات السماوية"[138] التي كانت كلها على أرض الجزيرة العربية، و من ثم فأهل هذه الأرض هم من تقاسموا و تشاركوا بل و جعلوا الغرب يتهافت لينتقي من حضارتهم ما يشاء.

والحق إن الدكتور هاشم صالح ناضل كثيرا عبر ترجماته المتعددة للكتب عظماء المفكرين، التنويريين خصوصا- وأبدى رغبته طموحه للمضي قدما بالأمة العربية، معترفا بتاريخها وعظمتها التراثية. لكن، يستغرب بالمقابل، كيف أن "الأصوليين" يتشبثون بفكرة "عدم التغيير" ويرفضون "التناقضات الجدلية" التي من الممكن أن تنتصر لجهة دون أخرى، حسب قوتها ومشروعيتها. والواضح إن التراث العربي الإسلامي –وليس كله طبعا- فيه من المكونات ما يتعارض مع ما يقره العلم الحديث. لكن هل هذا يعني أن كل ما جاء به "العلم الحديث" ومفاهيم "ما بعد الحداثة" فريد بطبعه؟ أم أنه أنشأ لفائدة جهة معينة دون الأخرى؟ إذا كان ذلك كذلك، فما العيب في إنشاء علم حديث لا يشبه ما أنشأته الجهة الأولى، شريطة ألا يتعارض مع "النص القرآني" وأن يكون في مرتبة ما حققه العلم الحديث أو أكثر؟

[138] العقاد، محمود، عباس، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، نهضة مصر، 2005، ص10.

المشكل هو إن انقسام المجتمع إلى فئات، ونقصد هنا "الأصوليون" و "المجددون"، دائما ما سيظل صراعا قائما. وبالتالي فنحن لسنا دائما مستعدين –حتى نثور قليلا على قول الدكتور الذي مفاده أنه لا بد من شيء، وسماه ""الكارثة" أو الزلزال"، لكي يتم التغيير ويولد الفكر. - لما يهز كياننا، أو يهدد أمننا واستقرارنا، كفانا من الكوارث والزلازل، ولنبعد الفكر بما يكفي عن "الكوارث "والفضائح، فإن التاريخ يهددنا، ليس "نحن" في الحاضر، لكن "نحن" في المستقبل البعيد.

الفصل السادس

وصف حالة "الهستيريا" العربية

في التعاطي "للتغريب

وصف حالة "الهستيريا" العربية في التعاطي "للتغريب

اضطراب "الهوية الثقافية" العربية.

لنتأمل هذا المقطع الأول،

وأنت إذا دخلت إلى متحف من المتاحف الجامعة لطرف فن التمثيل الحديث، وجدت التماثيل الكثيرة التي يعبر بها نوابغ المثاليين عن معنى خاص من معاني الجمال، أوجه خلاف شتى. فهذا يرى جمال المرأة في الخصر النحيل، وذلك يراه في انسجام ميول الجسم انسجاما تتبعه العين في طمأنينة كما يراه في النظرة البريئة والساذجة. وثالث يراه في رشاقة الأطراف، ورابع في بديع استدارة النواتئ. أتراك إذا كان حسك وذوقك ميالا لنوع خاص من هذه المعاني إلا مأخوذا به أكثر مما يأخذك إليه سواه؟ مع ذلك فهذه التماثيل كلها بدع من قطع الفن. فإذا أنت حكمت مندفعا وراء شعورك فقد تعرضت للغلو في مدح ما راقك، وتعرضت كذلك لإهمال ما سواه مما حكم له غيرك من الذاتيين بالتفوق المطلق."[139]

ومن ثم الآخر،

إن "النقد الذاتي للأدب العربي قصص صرف وليس في شيء من النقد. لأنك لا تستطيع –مع أكبر الأسف- أن تقول إن ثمة في هذا العصر الحاضر ثقافة عربية غزيرة مشتركة الأصول. بينما " النقد الذاتي لآثار الفن الأدبي في الغرب يجمع بين النقد والقصص."[140]

ومن ثم الثالث،

"لكن للنقد الموضوعي على النقد الذاتي فضل سعة الأفق ومزية العدل."[141]

[139] هيكل، حسن،محمد، في أوقات الفراغ، مجموعة رسائل أدبية، تاريخية، فلسفية، هنداوي، ص.14.

[140] نفس المرجع، ص.17-16.

[141] نفس المرجع،ص. 14.

ظاهر أن الأذواق تختلف وهذه حقيقة مفروغ منها. تختلف الأذواق باختلاف البشر. لكن، ما أكثر البشر حدة في التعلق بـ"الشكل"؟ و "النوع"؟ "الرمز"؟ و "التأمل"؟ أظنه الفنان بعد الفيلسوف والسينمائي. أظنه الشاعر مرة أخرى والحداد والفلاح. أظنه الإنسان العاقل. بمعنى تلك الذات المفكرة، الحاملة للواء الوسطية والاعتدال والاستقامة المجردة من الشوائب. والأكثر من ذلك، "المبدعة"، أي التي لا تخلو ولا تنئ بنفسها عن الخيال. فالمخيلة "تتيح تجاوز الفوري المحسوس لمعرفته بشكل أفضل، وكذلك للارتفاع باتجاه ما يتجاوزه، لإدراك "ما لا يستطيع العقل البارد فهمه أبدا"[142].

ناهيك عن ذلك، يتضمن منطق الإبداع "عناصر تمكنه من خلخلة البناء – الوعي- السائد في الواقع، والمألوف حسب مقتضيات الدساتير والقوانين، وكذا الأعراف والتعاقدات الاجتماعية، ورواسب الذاكرة الاجتماعية، مما يجعل الكتابة تدخل زمن المغايرة الذي يجعل منها سلطة قادرة على إعادة البناء، وإعادة الإنتاج ومن ثمة، يصبح معاديا، مع العلم أن الخيال هو المكان الأنسب لحرية الفرد"[143].

وقد سبق وأن أشرنا إلى هذه النقطة المهمة والمركزية مركزية الشمس في النظام الشمسي، ألا وهي "المخيلة المبدعة" التي تدخل ضمن النقاط التي تناولها الدكتور "حليم بركات" إبان المؤتمر الفلسفي العربي الذي أقيم بتونس سنة ثمانية وثمانين تسع مائة وألف، في بحث تحت عنوان: *" العقلانية والمخيلة والثقافة العربية"*.[144]

كما أن للمخيلة والخيال مرادف آخر، سمي ب "المجاز"، باعتباره" أداة نقوم من خلالها بربط المعلوم بالمجهول، وبذلك يمكننا أن نعمق من إدراكنا للمجهول."[145] *إن المجاز، يقول عبد الوهاب المسيري" في مقدمة كتاب "بيجوفيتش"، مرتبط تماما بظاهرة الإنسان."*[146]

---

142 شكسبير، ورد في الصفحة الستة بعد المائة من كتاب: الجهل الجديد و مشكل الثقافة، لكاتبه توما دو كونانك، و مترجمه: منصور القاضي.

143 كرام، زهور، في ضيافة الرقابة، من خلال التجربة الإبداعية لـ"ليلى عثمان"، منشورات الزمن، مارس ، 2001.

144 د.وهبة،مراد، الفلسفة في مؤتمرات،ص,197.

145 بيجوفيتش، عزت، علي، الإسلام بين الشرق و الغرب، تقديم: عبد الوهاب المسيري، ترجمة: محمد يوسف عدس. دار الشروق، 2019. ص.11/379.

146 نفس المرجع، ص.12/379.

إن لكل إنسان عاقل وجوده الخاص. لكن الصواب هو أن يكون وجوده الخاص منغرسا في الوجود الجمعي أو الجماعي أو العام. وعلى الوجود الجمعي أن يعترف، معتمدا لامتناهيات الطرق، بانتماء الوجود الخاص أو الفردي أو الذاتي إلى مجموعته. وهذا هو المبتغى. والذي يظنه الدكتور "محمد حسين هيكل"، منعدما في "النقد الذاتي في الأدب العربي"، هذا الذي يطغى عليه طابع السرد أو "القصة" كما أوردها الدكتور. وربما هذا ما يفسر عزوف الناقد العربي عن التعاطي ل "النقد الموضوعي"، نظرا لصعوبته وإلزاميته المنهجية وتوابعها. وحتى ممارسة النقد نادرة، حتى نكون موضوعيين. ف"طرابيشي" و "الجابري" و "طه"[147] لم يكتب لهم الإحاطة بالمعنى الصحيح لـ "النقد"[148]. وحتى نوضح ذلك نسأل عما إذا كان "جون جاك روسو" قد انهال على

[147] أنظر كتاب: الحري، عبد الله، طه عبد الرحمن و محمد عابد الجابري، صراع المشروعين على أرض الحكمة الشردية. الشبكة العربية للأبحاث و النشر، 2014.

[148] أقصد أنه كان و من اللازم أن يكون هناك رابط قوي و جوهري بين المفكرين العرب جميعا باعتبار الانتماء إلى نفس الحضارة الإسلامية. و الدكتور الجابري فعلا، و لن يستطيع كل ذي عقل أن ينكر ذلك، مفكر و فيلسوف عربي عظيم، كان قوميا و دافع عن القومية العربية و هذا شيء جميل لكننه يتعارض مع الفكر، فنقد العقل العربي هو في آخر المطاف نقد للعقل الغربي . بحيث أن الثقافة الغربية غيرت من مجرى الأحداث في الشرق وربما ذهب العرب إلى التحديث اقتداء بالغرب فظهرت التيارات النسوية و اللادينية و بعض الظواهر التي هي لا محال نتاج وسائل الإعلام الغربية مقابل ضعف بنية العقل العربي تارة و بسبب الغزو الأيديولوجي الغربي –ونحن نعلم أن الأوروبيون يعتبرون الإغريق أجدادهم، و نحن نعرف عن الإغريق "الخطابة" و "السفسطة"، و بديهي أن يتأثر عقل تم إخضاعه للاستعمار الكلي و الجذري بموروث الإغريق الفلسفي ، بل حتى بالفكر الإسلامي أيضا و بشكل كبير. و إذا كان هناك قصور في الذهنية العربية"كما قال ارنست رينان"، فالسبب ها هنا واضح.إنه عجز المفكرين العرب عن تحديد هدف واضح للمضي قدما بالفكر و بالتالي المجتمعات، و نحن إذ نتحدث عن المفكر لا نهمل القارئ، أي المواطن الذي بدوره يجب أن يعمل على فهم و مسائلة ما ينتج و ما يقال، و على المدرسة و الجامعة أن تواكب إنتاجات المفكرين و أن تعمل على تكوين مفكرين كذلك، و الأصل أن يكون الدارس أو الناقد أو المثقف بصفة عامة أو من يعتبر نفسه مثقفا قد استطاع تحقيق الاندماج التدريجي-بفضل التنشئة الاجتماعية- في الوعي الجمعي. و هذا الأخير من القائم أن يصبح أكثر شمولا كلما كانت نسبة المغالطات و نسبة السفسطة منخفضة، كلما تحقق النصر، يجب أن يكون كل عربي يحمل بطاقة هوية عربية. حينئذ، سيتلقى الأمي من العالم أبجديات القراءة و الكتابة و النقد، و سيتمتع الفقير بمال الغني الحلال الطيب، و معه سيشع النور. ذلك النور النسبي الذي أنار أوربا، لن يصمد أمام نور الإسلام.بل سيحتوي نور أوربا و سيصبح العالم كله ، بل الوجود، وحدة واحدة منظمة تماما كالطبيعة. فالنقد العربي إذا نقد متعارض مبدئيا بالرغم من وجود بعض المؤشرات "النظرية" و "التاريخية" الدالة على الوحدة، أو "ضرورة الوحدة" « L'obligation de l'union »-" فالجابري يقول بأن هناك قاعدة عرفية مفادها أن المثقف لا ينسب إلى ثقافة إلا إذا كان يفكر بواسطتها، بينما يصرح إدوارد سعيد قائلا : " و في ما يتعلق بحالتي الخاصة- وهي قد تثير الأسى، وربما تكون مسلية أيضا- فإن خلفيتي الخاصة، و هي في الشرق الأوسط، هي على وجه التحديد، ما كان يجب أن أطرحه عني، لكي أصبح أفضل في-أو مهنيا أفضل- في دراسة و تدريس الانجليزية....نشأت في الشرق الأوسط،أعرف عن بريطانيا أكثر مما أعرفه عن البلد الذي أعيش فيه،أعرف أكثر عن تاريخها و ما إلى ذلك..." هل يمكن اعتبار ادوارد، بحكم أنه عاش في بريطانيا إلى أن توفي بنيويورك سنة 2003،أنه ليس مفكرا عربيا؟ إذا كان الجواب هو "لا" بناء على قول الجابري، فإن إدوار سعيد ليس بمثقف عربي" .من جهة أخرى، حين تبنى الجابري المذهب الرشدي في الدعوة إلى الانعتاق

مؤلفات "ديدرو" بالنقد حتى أغرقه؟ لن نجد ذلك، وحتى إن وجد كان بعيدا كل البعد عن خلق اضطراب و "مرض" في جهاز التاريخ الفرنسي، بل تضافرت الجهود ب "وعي"[149]، حتى أن النتيجة كانت أن تخلصت فرنسا من "الاستبداد".[150] لكن"، الغريب في الأمر، والداعي إلى السؤال والدهشة أو بدهشة هو: لماذا لم ينجح المفكرون والمثقفون العرب في خلق "توافق"[151] مبدئي "مشترك"-حتى نعيد عبارة محمد حسين هيكل- فيما يخص قضايا مجتمعاتهم التي لها أكثر من رابطة، من دين وثقافة وتاريخ؟ وهل هيمنة السرد في النقد الذاتي الأدبي-كنموذج- كفيل بتوضيح الأزمة الفكرية للمفكر العربي في هذا المجال؟ هل يمكن القول بأن إظهار عقلانية العقل العربي في هكذا ظروف، شيء يدعو إلى الخوف؟ التراجع؟ الكسل؟ التواكل؟

من الوضع الهزيل للفكر و المجتمع العربي، دعا طه إلى تجاوز الرشدية ، معتبرا كون "كل أمر منقول معترض عليه حتى تثبت بالدليل صحته"، و أن "كل أمر مأصول مسلم به حتى يثبت بالدليل فساده". ولعل كتاب عبد النبي الحري، الموسوم ب "**طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري: صراع المشروعين على أرض الحكمة الرشدية**"،- *منشورات الشبكة العربية للأبحاث والنشر الطبعة الأولى، بيروت، 2014*"- يسلط الضوء- حتى و إن تعلق الأمر بمقاربة فكر "مفكرين" عربيين فقط، بحيث أن الغاية من الفكر العربي، على ما يبدو، هي نفس حالة الفكر الغربي"، ذاك الذي لا يهمه سوى حسم التناقض فقط، و الدليل على ذلك هو ما صرح به الدكتور الحري قائلا: إن " المشروع الفكري عند طه ليس في حقيقة الأمر إلا المشروع الفكري الجابري مقلوبا، فما يقوم الجابري بالإعلاء من شأنه، يقوم طه عبد الرحمن بالحط من قيمته و العكس بالعكس"، جهان نجيب، الجابري و طه: صراع المشروعين على أرض الرشدية، كوة، 30، سبتمبر، 2017.- على ما اعتبرناه قصورا فعلا في الذهنية العربية. و هو ما سبق و أن أشرنا له في مقال تحت عنوان: " الاستشراق: بدايات عرقلة الفكر العربي" رقيم. بحيث أن الفكر العربي قد دخل في صراع داخلي سيكولوجي أكثر من مجرد تعارض وجه نظر. فالجابري و طه لم يلتقيا إلا مرة واحدة و في جو مشحون. أ هكذا يتم حل مشكل قومي؟ و طرابيشي المفكر السوري ، كان أن قضى حوالي خمسة عشر سنة في نقد الجابري. كما لو أنه غير قادر على تأليف كتاب ينتقد من خلاله ليس فقط الجابري و إنما الفكر العربي بطريقة غير تلك التي سلك الجابري.

149 من البؤس والوحشة أن يكون الفرد تعيساً بسبب وعيه. في المناخات العربية التي ابتليت بكافة أمراض النمو، ولم تنل أية جرعة لقاح حقيقية، رغم وفرة الأطباء، تتعدد الظروف التي تضاعف شقاء المثقفين، شقاء يسببه وعيهم المعرفي، وشقاء آخر ناجم عن الإقصاء والتهميش التي تعتمده السلطة كمنهج للتعاطي مع المثقفين، وشقاء يتولّد عن قيام المثقف بالانكفاء والانعزال عن المجتمع طواعية، أو ربما يكون العزل قسرياً، حيث يدفعه تجاهل الجماهير له ونبذهم لأفكاره ومواقفه على الخلوة وترك الشأن العام، عزلة مميتة قد تتسبب بالانتحار الثقافي، وأحياناً يُرغم المثقف على الرحيل الفكري. حسن العاصي، فينومينولوجيا شقاء الوعي، مأزق المثقف العربي، جريدة الحدث، 26، نونبر 2014.

150 الاستبداد لغة، هو غرور المرء برأيه و الأنفة عن قبول النصيحة أو الاستقلال في الرأي و في الحقوق المشتركة. و يراد بالاستبداد، عند إطلاقه، استبداد الحكومات خاصة، لأنها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى ذوي الحياة. و الاستبداد يعني أيضا التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوي. من كتاب " عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد، تقديم الدكتور أسعد السحمراني، فضاء الفن و الثقافة، ص.34- 37.

151 متوافق- يعادل في المنطق الصوري إجمالا اللاتناقض. يكون نسق ما متوافقا غن لم يكن في الإمكان إثبات معادلة متناقضة فيه-موسوعة لالاند الفلسفية.

لنعتبر، حتى نستهل الحديث عن موضوعنا، أو بالأحرى إشكاليتنا الفلسفية "المتحف" هو "الحداثة الغربية" وهي بعيدة كل البعد على أن تكون "الحداثة"[152] نفسها، بل هي مجرد نتاج لعملية "التحديث[153]" وهي عملية مستمرة لا تتوقف وإن توقفت وصفت الحداثة ب "المتآكلة والجامدة" كما قال عبد الرحمان طه. ولنعتبر الفنانين المثاليين هم البشر، كافة، دون تقسيم أو تجزيء. ولنفتح الباب، بعد أن نوسع "المتحف" حتى يحوي الكل. وبعد ذلك، نضع في الصالون الذي جرى عليه ما جرى على المتحف، ما تيسر من المأكولات والمشروبات والفواكه والسمك المقلي والمشوي والماء المالح والعذب والقهوة والشاي.... ثم ننسحب نهائيا من المكان، لنترك الحياة تنمو وتستمر ولنراقب عن بعد. لنختار لأنفسنا كذلك ما شئنا، ولنراقب بدقة النسر الجائع، كيف ستجري الأمور. وحتى نطفي عطش القارئ ونحبس عنه ملل الانتظار، سنفصل إشكاليتنا، لتشمل التساؤلات التالية:

كيف ستبدو آراء البشر تجاه "الحداثة الغربية"[154]، التي هي كما قلنا "نموذج للحداثة" في معناها الشمولي؟ أي ما الذي قد يكون أكثر إثارة فيها؟ -إذا اعتبرناها كامرأة-؟ ما الجانب المظلم-بحيث أن الكمال لله وحده بينما كمال الإنسان نسبي يبلغ أقصاه الأنبياء والرسل عليهم أتم الصلوات، والعارفين بالله والمتقين والعلماء- الذي من القائم أن يرعب هذا الزائر أو ذاك؟

بالمقابل، من سهم بصب الشاي قبل بدء عملية التأمل؟ ومن سيختار القهوة؟ ومن سيختار النبيذ؟ ومن سيختار أن يأكل التفاح؟ ومن سيفضل الصوم والتعفف؟

والأكثر من ذلك، من سيرفض الدخول؟ ومن سيرفض الخروج؟ من سيمل من النبيذ؟ ومن ستأخذه إحدى خصال تلك المرأة الجميلة إلى الإدمان عن النبيذ؟ ومن ستجبره عيون عن الموت؟ الانتحار؟ الهروب وعدم الرغبة في العيش في المتحف أو تبادل الحب مع إحدى الشخصيات هناك؟

من سيصاب بالعمى؟ ومن سيمضي بإحدى جوانب المتحف قدما؟ ومن سيقوم بالعكس؟ ومن سيتولى أو يبدي رغبته في تولي إدارة المتحف؟

152 اعتبارا لكون الحداثة حال و مال كما ورد في قول طه عبد الرحمان.

153 د.سمير، حميد، الحداثة و ما بعدها في الفكر العربي الحديث. ص..13.

154 ملحق، رقم.2.

من جهة أخرى، كيف سيتعامل أصحاب المتحف مع هذه الفوضى التي من القائم أن تحطم المتحف بأكمله؟ من سيدافع عنه؟ أ الكل؟ أ لا أحد؟ أ الأناني؟ أ المادي الوصولي؟ أ الفنان؟ ألن يترتب عن الفوضى نظام؟

من جهة أخرى، هل سيتفق الزائرون البشر حول جمالية ذلك الجانب أو ذاك من المتحف؟ -أقصد الحداثة الغربية إن أتلفتم الخيط الرابط-؟

إن الواقع شيء آخر. ولعل قصة المتحف هاته، ما هي إلا تعبير أقرب إلى الواقعية نوعا ما، وهو ليس الواقع طبعا. حيث يقول في هذا السياق عظيم الفلاسفة الإغريق- سقراط - حول موضوع الجمال بأن الجميل شيء غير الأشياء المساهمة فيه، وأن الأشياء المساهمة فيه بعيدة كل البعد على أن تكون الجميل نفسه[155].

وبالتالي، فحالة المتحف ما هي إلا صورة تجريدية للواقع. فقبل دخول العدد "اللامتناهي" من البشر إليه، وبعد ذلك بثانية وبعد ذلك بساعة وبعد ذلك بيوم، هو شيء آخر، أي واقع آخر، أي متحف أخر، أي بشر آخرون، أي ماذا؟ أي أن الأمر أصبح تكتلات، مسألة تاريخية، أصبح لا بد من وجود "مؤرخين" و "سوسيولوجيا" و "علماء نفس" و "زعماء سياسيين" و "أساتذة" و "مربين" كذلك وهو الأمر الأهم، لأن حالة المتحف في غياب تنظيم عقلاني وقانون تسري فصوله على الكل-مع اعتبار الحالات الشاذة- هو أمر مأساوي وصعب وسيؤدي لا محال إلى الصراع، والصراع يؤدي إلى الحرب. والحروب أنواع وباعتبار كل أنواعها فهي نتاج لغياب التنظيم، أو الأكثر من ذلك وجود تنظيم لا يتماشى مع ذهنية هذا العدد الهائل من البشر، وهو ما سماه "الكواكبي" ب "الاستبداد"[156].

---

155 توما دوكونانك، الجهل الجديد و مشكلة الثقافة، ص....

156 الكواكبي، عبد الرحمان، طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد، تقديم الدكتور أسعد السحمراني،فضاء الفم و الثقافة، ص.44-37 .

ويحضرني "مقطع"[157] من رواية "الغريب" للفيلسوف الكبير الجزائري-الفرنسي، صاحب نوبل للآداب، الذي قال عنه "أوبريان":

" *من الراجح، أنه الكاتب الأوروبي الوحيد الذي استطاع قياسا إلى حقبته، التأثير بعمق على المتخيل وكذا الوعي الأخلاقي والسياسي سواء لأفراد جيله ثم الذي تلاه*"[158]، وهو يظهر في طيات الصفحة الرابعة بعد التسعين من الرواية المترجمة للعربية من طرف الدكتور "محمد ايت حنا"[159]. ولعل إيراد هذا المقطع ليس الغرض منه إظهار مكامن ضعف الشق المنعوت بالمذموم في النقد الذاتي الأدبي العربي، وهو شق السرد، "القصة"، بل لنبين أن في "القصص" نوعا من الحجاج، أي النقد القائم على أدلة قد تبدو غير مرئية وغير مفهومة في بعض الأحيان، كما هو الشأن بالنسبة للقران الكريم[160].

---

157 "فما بين فراشي و لوحة السرير، وجدت جزءا من جريدة يكاد يلتصق بالنسيج، و قد صار مصفرا و شفافا. كان يروي حادثة، تنقصها البداية، لكن لابد أنها جرت في "تشيكوسلوفاكيا". ذلك أن رجلا غادر قرية تشيكية طلبا للاغتناء. و بعد خمس و عشرين سنة عاد و قد صار غنيا و صحبته زوجته و ابنه. و كانت أمه و أخته تديران فندقا في قريته الأصل. وحتى يفاجئهما ترك زوجته و ابنه في مبني آخر، و ذهب ال فندق أمه التي لم تتعرف عليه حين دخل عليها. و للدعابة، أتته فكرة حجر غرفة. فأخرج نقوده. و مساء قتلته أمه و أخته بضربات مطرقة، حتى تسرقاه، ثم رمتا جثته في النهر. و إذا طلع الصباح أتت زوجته و كشفت عن هوية المسافر، دون ان تدري. فشنقت الأم نفسها بينما ألقت الأخت بنفسها في بئر."
https://free.facebook.com/upgrade/ussd/?src=https%3A%2F%2Ffree.facebook.com%2Fstory.php%3Fstory_fbid%3D202102077795602%26id%3D100039874328376%26refid%3D17%26_ft_%3Dmf_story_key.202102077795602%253Atop_level_post_id.202102077795602%253Atl_objid.202102077795602%253Acontent_owner_id_new.100039874328376%253Athrowback_story_fbid.202102077795602%253Aphoto_id.202101941128949%253Astory_location.4%253Astory_attachment_style.photo%253Athid.100039874328376%253A306061129499414%253A2%253A0%253A1585724399%253A8791014266285066010%26__tn__%3D%252As-R&location=photo&story_id=S%3A_I100039874328376%3A202102077795602&refid=52&_ft_=mf_story_key.202102077795602%3Atop_level_post_id.202102077795602%3Atl_objid.202102077795602%3Acontent_owner_id_new.100039874328376%3Athrowback_story_fbid.202102077795602%3Aphoto_id.202101941128949%3Astory_location.4%3Astory_attachment_style.photo%3Athid.100039874328376&__tn__=EH-R

158 ادوارد سعيد ألبير كامو:فرنسا،الجزائر،والسياق الاستعماري، ترجمة :سعيد بوخليط، أنتلجنسيا، أكتوبر،2018.

159 ايت حنا، الغريب لأبير كامو، منشورات الجمل، يناير، 2014.

160 هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ال عمران- الآية 7.

والمقطع يحكي قصة رجل سافر لجمع المال حتى يعين أسرته المكونة من أم وأخت. ومع مرور الوقت، عاد الرجل وبمعيته زوجته وابنه. وللدعابة، قام بالتنكر لأسرته التي تدير فندقا في القرية، لكن لسوء حظه فذلك الزمن الذي جعل منه غنيا وميسورا وجعل له زوجة وابنا ومالا أيضا، هو نفس الزمن الذي أودى بحياته، وغير من طابع أمه وأخته، وقادهما إلى قتله طمعا في ماله وهو مالهم جميعا.

بل الأكثر من ذلك، قتل ورمي في النهر. لم يكتب له البوح بالسر، تصحيح هفوته، التعريف بنفسه والإدلاء بهويته. إلا أن الوقت الذي تسبب في هفوته، تسبب في قتل أمه وأخته، ووحدانية زوجته ويتم ابنه. كيف تجرأت أم، ونحن نعرف مكانتها في الوجود حتى لا نغرق في التفاصيل، وشابة يافعة على ارتكاب هذه الجريمة البشعة التي أودت بحياتهما؟ لقد انتحرت الأم. وألقت الأخت بنفسها في "بئر"، أي وضعت حدا لحياتها أيضا. فاختفت عائلة وتحطمت في رمشه عين. ضاعت بسبب "دعابة". أليست هذه قمة "العبث"؟ أليس هذا الفصل القصير قصر العمر مليء بالحجج؟ بالنقد؟ ألا ينتقد النص مفهوم الطمع؟ الجشع؟ الأنانية؟ الجهل؟ ألا ينتقد "البلاهة"؟

وبالتالي، فإن النص يظل "غامضا"[161]، ويحتاج إلى مؤول أو مفسر أو شيئا من هذا القبيل، شريطة أن يراعي جميع المعايير الممكنة والجاري بها العمل في مجال تقييم النص الأدبي وتحليل الخطاب. ولا شك أن كل محاولات التأويل أو القراءة ستظل نسبية. وذلك اعتبارا لمجموعة من الأسباب والعوامل المباشرة وغير المباشرة كاللغة أو إحدى خصائصها-الترجمة نموذجا- أو كالثقافة أو كالمجال الجغرافي والسياسي والاجتماعي الذي تمارس فيه هذه القراءة أو هذا التأويل.

وبالتالي، يمكننا القول بأن القصة، باعتبارها الجزء الذي يطغى –كما قال الأستاذ هيكل- على النقد الذاتي الأدبي العربي، مقابل جمع الناقد الغربي بين الاثنين، هو نفس الشيء. بحيث أن جمع الناقد الغربي بين النقد الذاتي والقصة، بطريقة تذهب عن ناقده أو قارئه مبدأ الشك في صلاحية وأصولية العمل الذي قام بإنتاجه، لسبب واحد ألا وهو تغليب النقد عن السرد، هو في آخر المطاف نفس الشيء الذي يسعى من ورائه الناقد الذاتي الذي يغلب الطابع القصصي على

[161] كيليطو،عبد الفتاح، الأدب و الغرابة،دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر،ص.18.

النقد اعتبارا منه لخصوصية السرد الحجاجية التي تحتاج إلى مؤول كما قال الأستاذ عبد الفتاح كيليطو[162].

ومن جهة أخرى، حتى نبعد عن المفكر العربي تهمة التهاون بناء على تغليب الأسلوب القصصي على النقدي في ممارسة النقد، يجدر بنا العودة للأصل. فما أصل الخلاف الذي أشار إليه "هيكل"؟ بحيث أنه يشيد بتغلب الناقد الغربي في مجال الأدب –وقس على ذلك- على الناقد العربي. فهل من الواجب والضروري توحيد مناهج البحث حتى تقل تيارات اللوم من الهبوب شرقا؟ من الشرق ومن الغرب؟ إذا كان العرب المسلمون ينتمون إلى الحضارة العربية الإسلامية، وإذا كانت أوربا مهدا للمسيحية والعلمانية واللادينية والحرية الدينية، فالأمور تختلف مبدئيا. إذ أن ما حققته أوربا عن طريق العلمانية وما ستحققه، ليس نفس الشيء الذي حققه المسلمون عن طريق الإسلام وسيحققونه.

وبالتالي فلكل فريق مرجعياته التاريخية الفريدة وأنماط تفكيره الخاصة والأكثر من ذلك مفكرين ومثقفين ورجال دين وفنانين، يأطرون باستمرار ما يسميه "الجابري" ب"الخصوصية الثقافية". فعادات الشرق في المغرب مثلا غير معروفة في مناطق أخرى، في الجنوب مثلا، ونفس الشيء بالنسبة للهجات، لكن، وبالرغم من جهل مواطن الجنوب بإحدى خصائص الشرق، فهو يؤمن أن ذلك يدخل ضمن مفهوم الثقافة المحلية-الوطنية، ويعي ذلك وعيا. وبهذا يكون الاثنان متفقان على انتمائهم لنفس الثقافة الوطنية، بغض النظر عن الخصائص المحلية-المحلية للثقافة. وهذا ما ينقص العقل العربي. إنه لا يعي أن الوحدة إن أصبحت سارية المفعول عمليا وعقلانيا وبوعي، سوف يقضى على الطمع، الأنانية، الجشع، الجهل، و "البلاهة"[163].

"الخصوصية الثقافية" وإمكانية التجديد من الداخل

إن ما نظن أنه تعرض للإهمال من قبل الدكتور "هيكل" هو، بدون منازع 'الانتماء". ونقصد ب "الانتماء" في هذا السياق، ما صرح به "الجابري" في الكتاب الأول من نقد العقل العربي، أي "تكوين العقل العربي"، حين قال إن ثمة " *قاعدة "عرفية" تتحدد بموجبها "الجنسية الثقافية" لكل مفكر، هذه القاعدة تقتضي أن المثقف لا ينسب إلى ثقافة معينة إلا إذا كان يفكر داخلها.*

162 كيليطو، نفس المرجع، نفس الصفحة.

163 إن البلاهة العامة تجلب للناس الطمأنينة و السعادة.على الوردي، مهزلة العقل البشري،ص.31.

والتفكير داخل ثقافة معينة لا يعني التفكير في قضاياها، بل بواسطتها. فقد يتم التفكير في قضايا ثقافية معينة بواسطة ثقافة أخرى، ومع ذلك يبقى المفكر منتميا إلى هذه دون تلك. فالفارابي مثلا، الذي فكر في قضايا الثقافة اليونانية، هو مفكر عربي لأنه فكر فيها بواسطة الثقافة العربية ومن خلالها. ومثل ذلك المستشرقون، فهم سيظلون "مستشرقين" يطلبون الشرق لأنهم يقعون خارجه، أي يفكرون في بعض قضاياه من موقع يقع خارج إحدى ثقافاته، وبالتالي، فلا يمكن أن ينتموا إلى الثقافة العربية لأنهم يفكرون في قضاياها من خارجها، بل ومن خارج محيطها الخاص."

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على "الخصوصية الثقافية"[164]. وهي سمة كل حضارة. وهي التي توحد وتجمع وتقوي. والأكثر من ذلك "فالثقافة هي التي تحدد التطور قبل وسائل الإنتاج والأنظمة السياسية"، والتخلي عنها أو "التنكر لها" هو نوع من "الانتحار الحضاري"[165]. وإذا كان "الإبداع لا يتعارض مع العقل" بحيث أن كل ما "من شأنه أن يتعارض مع العقل، يصقله الإبداع في قالب يسمح للعقل بفحصه وانتقاء العقلاني فيه"، فالأجدر بالمفكر العربي أن يبدع أكثر فأكثر وفي غنى شبه كلي عن سبل التحديث الغربي خصوصا وهلم جرا، إذ أن الخصوصية الثقافية هي التي تفرض ذلك وهي لا تنفي أو تنكر وجود ثقافة تخالفها في المبدأ والمظهر والأساس.

"لقد كانت منظومة الشرق عموما وعند الصين تخصيصا تنبني على المعقول لا على العقلانية، مما جعلها تستخدم طرازا قائما على نزعة جدلية تقوم على المعقول، وهي تختلف عن نزعة الجدل الهيكلي القائم على أن الأطروحة يتبعها نقيضها ثم يحسمها المركب بين الاثنين الذي يتصف بالحسم، بمعنى أن الهدف النهائي في الفكر الغربي هو حسم التناقض. أما الجدل الصيني فإنه يتخذ التناقض سبيلا إلى فهم العلاقات بين الأحداث والموضوعات، كما أنه يحتوي الصدام دون أن يحسم القضية. وجدير ذكره أن الميل إلى أسلوب الاحتواء بدل الحسم هو أسلوب فكري يرتد إلى التراث."[166]

---

[164] الجابري، محمد، عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة، ص16.

[165] سبيلا،محمد، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، 2009، ص.149.

[166] حميد سمير، مصدر انف الذكر.

والواقع أن هذه المنظومات "غير أوربية التمركز"[167] هي المثال الحي الدال على ذلك الطراز المختلف من الإبداع. فبينما أخذ العرب في تقليد الغرب، والغرب في التفتيش عن أسرار الشرق، كان طرف من العالم ينمو باستقلالية وتوازن شبه كلي، ومن القائم أن يصبح كليا في حال كف الطرفان عن التهافت الأول على "التقليد" والآخر على "التدمير".

في الواقع، حتى نعود لمثالنا الأول. حيث أن الحداثة الغربية مثلت بمتحف وأن زوار المتحف هم البشر بأكمله. ولنحاول الإجابة عن التساؤلات المطروحة.

إن من الطبيعي والضروري أيضا أن الآراء ستختلف. فهناك من سيذهب إلى اعتبار هذه الحداثة بمثابة جنة وهناك من سيرفضها رفضا، بل وهناك من "ستغريه"[168] هذه الحداثة فيندمج فيها ويصبح طرفا لا يتجزأ منها. وهذا أمر لطالما شكل موضوع دراسات أنثروبولوجي عديدة. - Acculturation/Déculturation.

والأكثر من ذلك، هو أن هذا الاختلاف هو اختلافات شتى. فالمرجعيات الثقافية لكل فرد على حدا، لا محال ستهيمن على الاختيارات والهواجس. ستخلق فوضى. ستعطل عمل العقل عرقلة محبوبة ولا أحد يلاحظها فهو منغمس في التعاطي لها، سيمر الوقت وستتغير الأمور وسيأتي أحدهم من الشرق، أو من الجنوب الشرقي، أو من مكان آخر، وهو ليس إلا مسافرا أو عابر سبيل، وسيجلس في محطة القطار مباشرة أمام المتحف، فسيرى ما لم تراه عيناه وسيراه البشر أجمعين ومن لم يكتب له أن يراه سيحدثونه عنه. وهذه الصور المأخوذة بسرعة، سيتقبلها كل عقل بطريقة مختلفة، وهكذا دواليك، إن التطور من سمات الإنسان والمجتمعات "المدنية". بحيث أن المجتمعات "البدائية" تكف عن التجديد، تنغلق عن نفسها وتغلق أبوابها، تخاف الجديد والغريب. وقد سأل "بيري" المستكشف المعروف، رجلا من "الأسكيمو": "بماذا تفكر؟" فأجابه الرجل: "ليس هناك داع للتفكير، فعندي كمية وافرة من الطعام". ويحدثنا "دورانت" عن قبائل "البوشمان" في إفريقيا أنهم: "إما في وليمة عامة أو في مجاعة عامة". ويضيف أن البدائيين في أستراليا لا يمكن تشغيلهم بأجور تدفع بعد حين، فهم يريدون الأجر حالا، وإذا حصل أحدهم على شيء من المال نتيجة عمله، انقطع عن العمل حتى ينفد ماله، فيرجع إلى العمل مرة أخر."[169]

---

167 نفس المصدر.

168 الوردي علي، مهزلة العقل البشري، ص.17.

169 نفس المرجع، ص.33.

فإذا كانت المجتمعات البدائية قد خلقت فيما بين أعضاء مجموعاتها نوعا من "التوافق"- يقابله التنازع- فهي تتسم بالقصور والخمول وعدم التجديد. بينما "الصفة الرئيسية التي تميز "المدنية" عن الحياة البدائية هي "الإبداع". فالحياة البدائية يسودها التقليد بينما الإبداع يسود حياة المدنية،" ثويني"

لكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو كالتالي:

هل كون المجتمعات العربية، -أو الأفراد- التقليدية، "الأصولية"، تمتنع عن كل ما هو جديد، أو آت من الغرب، بسبب خوفها من عدم قدرتها على ضبط نفسها جراء السماح لمنتج غربي بالدخول- عبر كل الطرق الممكنة- إلى رقعتها؟ أهو خوف مباشر من المنتج؟ أهو رفض ذو جذور ما سببه هذا الخوف؟ أو "الفوبيا"؟ أليس مصدر وينبوع هذا الرفض-مقابل التشبث بالأصل أو التقاليد- هو التاريخ؟ بعبارة أخرى، ألا يمكن اعتبار الماضي الدامي لبعض المجتمعات الشرقية- جراء الاستعمار- هو الدافع وراء هذا الرفض؟ لكن، كيف سنفسر ركوض فئات إلى الإعجاب بالثقافة الغربية حتى أن جل المفكرين العرب المشهورين قد درسوا في جامعات أمريكية وبريطانية وألمانية وفرنسية؟ فكيف سيتسنى لنا القول إنهم مفكرينا؟ من أنتجهم؟ أ الجامعة؟ تلك التي يغيب فيها الإنصاف؟ الأخلاق المهنية؟ لماذا فقط، وهو سؤال فيه من الذاتية ما يكفي لسد رمقنا:

لماذا لم تدرس كتب "الجابري" في بالجامعة المغربية؟ وهو أفنى عمره في جمع شمل العقول العربية؟

بالمقابل، لماذا، عندما قررت فئة داخل المجتمع العربي نفسه، أن تجدد في التعليم والتربية، والنظرة للدين... فقامت صراعات من نوع آخر، لا تعد ولا تحصى، ولعل أهمها تبني "تونس" العلمانية، وما ترتب عن ذلك، من بدع وخروج عن النص؟

الفصل السابع

كيف سنواجه اللاعقلانية العربية؟

كيف سنواجه "اللاعقلانية"[170] العربية؟

إن التغيير لا يعتمد على رفع الشعارات، تسويقها، تزويرها، محاولة كشفها للرأي العام، التباهي بها، اعتماد الانتقاء العشوائي للرفع من شأنها ومن تأثيرها. كما تفعل "وسائل الإعلام الجماهيرية"[171]. فالتغيير إن لم يكن مبنيا على العقل لا يجدر تسميته تغييرا.

ونقصد بـ "العقل"[172]، العمل وفق المبدأ- والمبدأ لا يخلو مساره من الأسلاك الشائكة، وتجاوز هذه العقبات، بواقعية، لا يجب أن يعتمد على التواكل والانتظار والنظرية، فالوصف الأنسب لهذا النوع من التغيير هو "التدمير". وذلك إن لم تكن هذه العملية مرتب لها في "وضوح"[173] وبوضوح وصرامة ودقة، آخذة بعين الاعتبار ما تمليه الظروف والسياق والماضي والأقليات ونمط العيش والتوزيع المجالي للثروات والأكثر من ذلك العيش داخل نطاق ما يسمى بـ "العالم الجديد"، فلن تنتج إلا أمراضا يصعب معالجتها.

إن الأجدر بالعقلانية هو التطبيق العملي للأفكار النيرة في آخر مرحلة تشكلها- أي بعد إزالة الشوائب أو المعيقات ذات البعد الأيديولوجي خاصة والتي يسميها الدكتور "هاشم صالح"[174]: اليقينيات الجماعية"- في قالب يسمح لها بالنمو وفقا للهدف الأسمى الذي يحركها، والذي بدوره يجب أن يكون مرسوما بوضوح تام، حيث يسهم كل فاعل في تسهيل عملية التبسيط والتوضيح حتى لا يتم الوقوع غير الإرادي- والإرادي أحيانا- في التناقضات. والتناقضات من مسببات الأزمة. والأزمة هي نتاج اللاعقلانية في الممارسات الجزئية.

---

170 اللاعقلانية : (الفلسفة والتصوُّف) مذهب فلسفيّ يقدّم اللاّمعقول على المعقول ويقول بأن العالم لا يُدرك كله بالمعرفة الواضحة بل يتضمّن بقايا غير معقولة وغير قابلة للتأويل: ينتمي أدبه للخرافة واللاّعقلانيَّة-معجم الجامع.

171 بحيث تنظر سيكولوجية وسائل الإعلام الجماهيرية إلى التلفزيون على الأخص باعتباره وسيلة، ليس لإخضاع الجانب الواعي في الإنسان فحسب، بل الجوانب الغريزية و العاطفية، بحيث تخلق فيه الشعور بأن الاراء المفروضة عليه هي اراؤه الخاصة.الإسلام بين الشرق و الغرب، علي عزت بيجوفيتش،ترجمة محمد يوسف عدس،دار الشروق2009، ص.119.

172 وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة و النشر و التوزيع، ص، 423، القاهرة، 2007. سمي العقل عقلا لأنه يمنع صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه. أبي منصور بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، 1966،ج1،ص.18.

173 ملحق، رقم 3.

174 هاشم صالح، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ دار الساقي،2007.

والقول إن العالم العربي يتخبط في أزمات اجتماعية وسياسية وثقافية ودينية، ليس بخبر حديث العهد.

فنحن نختلف في كل شيء، نختلف في نمط العيش، طرق الكلام، طرق استعمال وسائل النقل، طرق النجاح، المشي، التفكير، الانفعال، التصرف، الرؤية، النية... نحن نختلف في كل التفاصيل حتى إننا أصبحنا نغوص فيما هو سبب بسيط، يقود التعمق في إحالته على السؤال، إلى الابتعاد بشكل مهول على الجوهر، عوض تجاوز هذه المرحلة البدئية- والتي لا تشكل سوى فصل من فصول المخرج العقلاني- المؤدي إلى الانعتاق من مأزق يعنينا كافة كعرب ويعني الإنسانية برمتها.

نحن أصبحنا نعيش أزمة واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، أزمة في طرق استعمال العقل. هذا كل شيء.

ولعل أبرز تساؤلاتنا حول هذا الموضوع- أزمة العقلانية العربية- هي كالتالي:

ما الذي يحول دون تحقيق الأمة العربية حلم مثقفيها وعلمائها؟ وما هو المثقف أصلا؟ هل ذلك المفكر الذي يصلح أم ذلك الثوري الذي يشعل فتيل الصراع؟ ما هي السبل الكفيلة بتشكيل وحدوية عربية تناهض- فكريا وسلميا وأخلاقيا- التيارات الغربية التي تشيد بوجود "قصور في الذهنية العربية"[175] كما جاء على لسان "أرنست رينو" (1892-1823)؟ كيف يجب أن يتم الإصلاح والتصالح مع المجد والمعرفة والعلوم التي ترأسها العرب المسلمون؟

من جانب آخر، كيف يعرف المفكرون العرب الفكر، الفلسفة، العقلانية؟ ما مدى هيمنة المواد الأيديولوجية الغربية النابعة من عصور النهضة الأوربية بما في ذلك عصر الأنوار بفرنسا إبان القرن الثامن عشر والذي كان وراءه فلاسفة ومفكرين يستشهد بهم مفكرو العالم حتى يومنا هذا، والثورة الأمريكية والبلشفية، على العلاقة بين الفكر والمادة؟ كيف يمكن بناء التاريخ على أسس فكرية، عوض المادية النفعية المنبثقة من الأفكار "الداروينية" والمؤسسة للتفسير المادي للتاريخ؟

[175] مراد وهبة، الفلسفة في مؤتمرات،مكتبة الأنجلو المصرية، 1994.

المؤتمرات الفلسفية: نحو سبل أكثر "عقلانية"[176] لمواجهة "اللاعقلانية"[177].

في هذا الصدد، أقيمت عدة مؤتمرات فلسفية عالمية، في مجموعة من عواصم دول العالم. وقد ظهرت المؤتمرات الفلسفية في القرن العشرين، حيث انعقد أول مؤتمر فلسفي بباريس عام1900، وذلك برئاسة الفيلسوف الفرنسي" إيميل بوترو". ومن ثم توالت المؤتمرات الفلسفية، حيث انعقد المؤتمر الثاني ب "جونيف" سنة 1904، ثم "بهيدلبرج" سنة 1908، ثم ب "بولونيا سنة 1911. وبسبب الحرب العالمية الأولى توقفت اللقاءات الفلسفية الدولية. لينعقد مباشرة بعد ذلك المؤتمر الخامس بإيطاليا-"نابولي" سنة 1924، وبعد ذلك بسنتين ب "هارفارد". لتتوالى ثلاث مؤتمرات ب "أكسفورد" سنة 1930، ثم "براغ" سنة 1934، ومن ثم "باريس" سنة 1938الذي حمل اسم الفيلسوف "ديكارت" تخليدا لذكرى مرور ثلاث مائة عام على كتاب "مقال في المنهج"[178]..

وتوقفت المؤتمرات الفلسفية وللمرة الثانية على التوالي بسبب ماذا؟ بسبب الحرب العالمية الثانية. سنة 1948كتب لهذه اللقاءات العودة، حيث في "أمستردام" انعقد المؤتمر العاشر. وكان أن تم الاتفاق خلال فعالياته على تأسيس "الإتحاد الدولي للجمعيات الفلسفية " الذي ضم أربعين جمعية فلسفية وطنية في إحدى وعشرين دولة بالإضافة إلى إحدى عشر جمعية فلسفية دولية. ومنذ ذلك الحين، انتظم انعقاد المؤتمرات الفلسفية كل خمس سنوات. حيث 1953كان للفلاسفة لقاء بـ "بروكسيل"، وفي سنة1958، اجتمع الفلاسفة في "فينيسيا"، وفي سنة 1963بـ "المكسيك"، وفي سنة 1968"بفيينا".

إلى أي حد يمكن لفكرة المؤتمرات الفلسفية أن تتصدى لـ "لأزمات"[179] الفكرية والاجتماعية؟

---

[176] معجم اللغة العربية المعاصر: العقلانية هي مذهب القائلين بأن العقل وحده يكفي للمعرفة وإدراك اليقين.

[177] يرى ألبير أليس – Albert Ellis- أن الأفكار "اللاعقلانية" هي "مجموعة من الأفكار الخاطئة، و غير المنطقية، و التي تتصف بعدم الموضوعية و المبنية على توقعات و تنبؤات و تعميمات خاطئة، و أنها تعتمد الظن و المبالغة و التهويل بدرجة لا تتفق مع الإمكانات العقلية للفرد". رجاء محمود مريم، منيرة عبد الله الشمسان، الأفكار اللاعقلانية وعلاقتها بالوحدة النفسية لدى عينة من طالبات الجامعة في ضوء التخصص و التحصيل الدراسي، جامعة الملك سعود، قسم علم النفس، أكتوبر، 2017، ص.9

[178] مراد وهبة، الفلسفة في مؤتمرات، مكتبة الأنجلومصرية، 1994، ص.1.

[179] الأزمة هي الشدة و الضيق التي تعطل القدرات. محمد عمارة مناظرة. ص.23.

وفكرة المؤتمرات الفلسفية، فكرة تقدمية، نظرا لطابعها السلمي، الكوني خاصة. حيث تعمل على مناقشة التحديات العالمية في جو فلسفي من القائم أن يكون شكلا تغييريا راقيا، يبتعد عن ضجة الخطابات السياسية والمناظرات الجدلية التي غالبا ما يكون تأثيرها إقصائيا، انتقائيا. خصوصا إذا كانت هذه المؤتمرات محلية وعالمية.

كما يجب، وهو أمر ضروري، أن تتسم بالفعالية والدقة في مناقشة القضايا التي ترهق أو تعرقل المجتمعات البشرية، والأكثر من ذلك، يجب أن تعمل الحكومات ووسائل الإعلام بالدرجة الأولى على منح الاهتمام الكامل لمثل هذه اللقاءات والأخذ بما خلصت إليه. ولا بد من مواكبتها وإعداد تقارير حولها ونشرها في أوسع نطاق ممكن، حتى تصل للأغلبية أو للجميع.. فـ"الوعي عادة لا يتوفر إلا بنشر الثقافة[180]".

وقد كان مؤتمر "فارنا" المنعقد ببلغاريا سنة 1983 لقاء غنيا عن التعريف. إذ أنه ضم ولأول مرة فلاسفة من دول العالم الثالث، كأمريكا الشمالية، آسيا وإفريقيا. ويعتبر السكرتير العام للاتحاد العام للجمعيات الفلسفية آنذاك وهو "أندريه ميرسييه" مؤتمر "فارنا "حدثا في تاريخ الفلسفة العالمية في نهاية هذا القرن-أي القرن العشرين- حيث تواجه التيارات الفكرية بعضها البعض في جو من الصداقة والتفاهم المتبادل، وفي مواجهة توتر سياسي عالمي، - يقول ميرسييه - ينبغي أن تكون الفلسفة الحقة قادرة على المعارضة والمقاومة"[181].

لا بد إذا أن نوضح معنى "اللاعقلانية" العربية، وقد استحضرنا من أجل القيام بذلك رأي "التفسير المادي والاقتصادي للتاريخ". بحيث يقول-التفسير المادي للتاريخ- أن "الأفكار و "المشاعر و "العقائد ليست هي التي تحرك الناس وترسم لهم سلوكهم العملي في واقع الحياة. وإنما تجيء لاحقة لكل وضع اجتماعي أو اقتصادي، فهي ليست قوة موجهة، فضلا على أنها لا تثبت على حال واحد، فهي متطورة على الدوام"[182]. وإن كان هناك فرق بين التفسير المادي

180 الكواكبي، عبد الرحمان، طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد، تقديم د.أحمد السحمراني،ط3، دار النفائس، 2006، ص.20.

181 وهبة، مراد، الفلسفة في مؤتمرات، المكتبة الأنجلومصرية، 1994، ص.2.

182 قطب، محمد، معركة التقاليد، دار الشروق، ط16، 1992، ص.22.

للتاريخ والتفسير الاقتصادي له، فإن الأول يتبنى القوى المادية بشكل مطلق في تفسير التاريخ، بينما يختص الثاني في المظهر الاقتصادي للقوى المادية.[183]

وبناء على هذا، فالفكر يحتل المرتبة الثانية دائما- حسب التفسير المادي للتاريخ- الذي يقول في سياق آخر أن "تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام"[184]. وهذا اعتراف مادي محض يضرب عرضا وطولا في الذهنية البشرية، ويجمد كل إمكانيات إعمال العقل ومن ثم جعله موجها ومؤطرا للحياة. وحسب الفكر الماركسي دائما – واستنادا إلى ما سمي "البنية التحتية" «infra-structure»و "البنية الفوقية"«superstructure» ، بحيث أن الأولى- ب.ت- تمثل النتاج المادي والاقتصادي في مجتمع ما، بينما الثانية- ب.ف- فتمثل مجموع النظم السياسية والثقافية السائدة والمتولدة عن البينة الأولى، فالقاعدة الأساسية للفكر المادي هي إن "كل منتوج مادي هو الذي يحدد نوعية المنتوج الذهني".[185]

والتفسير المادي للتاريخ يكاد يعبر عن عجز غير محددة أسبابه بوضوح وتجلياته واضحة وآثاره وخيمة وملحوظة، أبرزها تحول المجتمع العربي من منتج إلى مستهلك لكل شيء، ومنها أيضا، تبعيته اللامشروطة للغرب.

و هذا القول مفاده أن البشرية مستعدة للتضحية بكل ما هو روحي و فكري مقابل الجانب المادي و الاقتصادي- بيد أن الإنسان هو في نفس الوقت جسد- مادة - و روح، و بالتالي فلا يجدر تجريد الذات البشرية من إحدى خصائصها الطبيعية و التي قد تكون نمطا مثاليا تنمو و تزدهر فيه العقلانية و بعقلانية، أي عن طريق اعتماد العقل كمعيار في الممارسات و الأفكار- و هذا في حد ذاته هو السبب الجوهري للتخلف الذي كانت تشهده أوربا في القرون الوسطى من جهة و العالم العربي الإسلامي حاليا و منذ عصور مضت: الصراع الجدلي بين الدين و الحرية –وليدة عصر الأنوار-.

---

[183] نفس المرجع. نفس الصفحة.

[184] نفس المرجع.ص.21.

[185] أ .حلاب نور الهدى، المنهج الاجتماعي في النقد، نشأته و خصائصه، جامعة العقيد أكلي محمد أولحاج/الجزائر، مجلة مركز دراسات الكوفة :مجلة فصلية محكمة، ص.10.

والقول إن الحرية التي هي جزء من الصراع، نابعة من الفكر التنويري، الذي شهدته فرنسا ومن ثم أوربا والولايات المتحدة الأمريكية يوازيه التذكير بقول "حليم بركات"[186] أن السائد في المجتمعات العربية، هو "العقلانية النقلية"، والتي تقابلها "المخيلة التقليدية"، وهي عكس "العقلانية النقدية" والتي تلازمها "المخيلة المبدعة". حيث أن للأولى-أي العقلانية النقلية- ارتباط وطيد بالموروث-ويمكن أن نسمي متبنيها ب "الأصوليين"[187]- ورفض أي محاولات التجديد أو التماشي- بعقلانية- مع السياق التاريخي والثقافي للمجتمع. وقد أدى ذلك إلى ظهور "العلمانية" والتي كنت قد خصصت لها محاولة فلسفية تحت عنوان: "*رسالة إلى امرأة علمانية*[188]" و"*قراءة*"[189] في نفس الكتاب. والعلمانية "مفهوم مستورد من الغرب للدلالة على كل ما هو لا ديني"، ويرجح الباحثين ظهوره كتيار بالعالم الإسلامي، إلى انهزام العرب عسكريا عام 1967 أي بسبب "النكسة".

الفلسفة تساءل "العقل العربي"[190]

أقيم بتونس سنة 1988 مؤتمرا فلسفيا تحت عنوان: "محاكمة العقل العربي". وكان الغرض من هذا اللقاء صياغة مشروع حضاري عربي يسهم في تنوير الواقع العربي ممارسة وفكرا. إذ يصف الأمين العام للمنظمة العربية للثقافة آنذاك "محيي الدين صابر" مثل هذه الندوات باعتبارها "تعبير عن الحاجة إلى تصور جدي ومؤسس على العقل تتجاوز به الأمة العربية واقع التخلف والتجزئة والتبعية إلى واقع جديد، من الوحدة والتقدم والإبداع في سياق حضاري مسؤول"[191].

وشارك في المؤتمر فلاسفة من المغرب: "على أومليل" ببحث تحت عنوان: "الذات والمغايرة...مفهوم الاختلاف في الفكر العربي"، ومن ليبيا: "محمد يسين عريبي" ببحث تحت عنوان: "الصورة

---

186 وهبة، مراد، الفلسفة في مؤتمرات.

187 ثمة مفهومان للأصولية. الأول كامن في الفكر الإسلامي و يفضي إلى إثبات هوية الفرد و المجتمع في الأمة الإسلامية-المفهوم الثاني: غريب عن الفكر الإسلامي، مستورد من الغرب عن طريق بعض المفكرين المسلمين بهدف إعمال مناهجه في العالم الإسلامي. مراد، وهبة، الفلسفة في مؤتمرات، ص.223.

188 EL HADDADY, Karim, Lettre à une femme laïque, Les Editions Edilivre, Paris, 2018.

189 كريم الحدادي، قراءة في كتاب رسالة إلى امرأة علمانية -مغرب الثقافة، 2020.

190 ليس مفهوما عنصريا ولا عرقيا و إنما هو مفهوم لغوي وثقافي وحضاري، تحدده اللغة العربية، وبما أن اللغة العربية هي لسان الإسلام فإن التشابك والوحدة قائمة بين ما نسميه "العقل العربي" و "العقل الإسلامي"، (ف) الأمة العربية هي القيادة و الريادة و القلب لأمة الإسلام". محمد عمارة مناظرة. ص.23

191 وهبة، مراد، الفلسفة في مؤتمرات، مكتبة الأنجلومصرية، ص.186.

التخطيطية لبحث الفهم والعقل والصراع بين الأنا المنطقية والأنا الجدلية من منظور ابن سينا والغزالي"، ومن سوريا: "حليم بركات" ببحث تحت عنوان "العقلانية والمخيلة والثقافة العربية". ومن فلسطين: "ناجي علوش"، ببحث تحت عنوان: " العقلانية في الممارسة السياسية العملية".

ويعرف علوش "العقلانية" على أنها "إخضاع كل ما في الوجود للعقل"، وباعتبارها ثورة فكرية واجتماعية. ويخلص إلى القول بأن أزمة العقلانية العربية هي أزمة الممارسة السياسية العملية[192].

وقد سعى "مصطفى حجازي" في بحثه المعنون: " نحو عقل عربي مستقبلي." تقديم رؤية فلسفية بالاستناد إلى فجوات العالم العربي، حيث يؤكد على ضرورة " تحول الذهنية "اللانفصالية" "التجزيئية" إلى ذهنية "وحدوية" "تأليفية"، وتحول "عقلية النفوذ" إلى "العقلية المؤسسة"، والتحول من التوجه الذهني "الاستبدادي" إلى العقلية "الديمقراطية"، والتحول من "القطيعة الذهنية" إلى "العقلية العلمية" و "الإبداع"[193]. واقتراحات حجازي تتماشى، نوعا ما- مع تصور "حليم بركات" للعقلانية.

وواضح من خلال هذه العناوين، وهذا الجهد الفكري الذي بذله هذا الجيل من المفكرين بغية إيجاد حل فعلي لما تعيشه مجتمعاتهم من تهميش وعدم استقرار وخوف، أنه لا توجد هناك صعوبات بدئية من المحتمل أن تحول دون تحقيق الوحدوية والتضامن الاجتماعي بين الشعوب العربية، خاصة وأن لها مجموعة من الخصائص المشتركة بدءا من اللغة، مرورا بالدين والثقافة والأرض...كذلك.

والغريب في الأمر هو أن الأرض العربية –حاليا- ملطخة بالدماء، والفكر تآكل في المكتبات والعقول التي نرجو أن تحقق "العقلانية" قد زعزعت الغارات كينونتها وباتت تهدد بقاءها. والأكثر غرابة هو هذا البحث المتواصل عن الحرية وهذه الرغبة الجامحة في التخلص من الدين، الأخلاق، الآخرة، الموت... والجدير بالذكر أن "تعرف الفكر العربي على العقلانية كان إثر لقائه بالغرب"[194]، أي وقع هناك احتكاك نتج عنه هجرة المفاهيم وترحيلها بغية إسقاطها فيما هو ليس

---

[192] وهبة، مراد، الفلسفة في مؤتمرات، ص.204-206

[193] د. مراد هبة، الفلسفة في مؤتمرات-بحث مصطفى حجازي.

[194] عبد الله موسى، إشكالية العقلانية العربية في الفكر العربي المعاصر،دراسة في أعمال محمد عابد الجابري، إنسانيات، 2001.

سياقها أو أن مرحلها لم يكن جديرا بتحولها وتبسيطها بطريقة غير جذرية-أي لا تنفي كليا القيم السائدة، وبالتالي يجب ألا تكون دغمائية، قطيعة، متشددة.

لا بد من أن نذكر بما تناولناه في الأسطر السابقة، والذي كانت كل الأسئلة المنبثقة منه مجرد آراء فلاسفة عرب و غربيين، و محطات تاريخية كبرى من قبيل الثورة الفرنسية و حرب حزيران حين هزم العرب عسكريا ضد إسرائيل، و انتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي، و اصطدامها بالأصوليين، و تأثير الفكر الغربي على الثقافة العربية الإسلامية ، و تخبط المثقف العربي في بحور التقليد و التبعية، و كانت هذه المحطات التاريخية بمثابة فرصة للغرب و العالم الإسلامي أيضا للحكم على العرب باللاعقلانية و بالقصور الذهني و بالتخلف و الركود.

وأسفر عن هذا الوضع، توالي الصراعات الأيديولوجية، الحروب- خصوصا في الشرق الأوسط- والهجرة واللجوء السياسي الذي أصبح ظاهرة العصر. وبغض النظر عن المشاكل السياسية التي لها جذور أيضا، يكون دور المثقف أحاديا، يكتفي بالتدوين بغية بناء تاريخ معين، والذي لا جدوى منه في ظل عدم الاستقرار الذي تشهده البلاد العربية.

نحن في حاجة إلى بناء مجتمع عربي ليس همه الوحيد الانتقام من الماضي أو الثورة عليه: هكذا بينا كيف يجب التعامل مع مفهوم الأزمة في العالم العربي. حيث أن هذه الأخيرة هي نتاج لتضارب غير منطقي بين العرب والعرب، فالقبيلة والطائفية وتعدد المذاهب لا محال هو تكديس للعداوة وتحفيز للتفرقة. وهذه المشاكل كونها تدور في بلاد مشتركة تاريخيا وثقافيا ودينيا، ترسم في سماء العالم نوعا من الأحكام المسبقة إزاء العرب، ومهم منغمسون في الحياة اليومية، يطمحون للتحرر والثراء، نافين بذلك الدور الذي قد أنيطوا به: وهو تحقيق العدالة الاجتماعية وفقا لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، والوقوف على مكامن الضعف في التأويل والتأريخ والعمل العقلاني.

واضحة هي أزمة العالم العربي: إنه يظن أن الوقت قد فات لبداية عقلنة وجوده، وما يزال يرى في العلمانية طريقا للنجاح متخليا بذلك عن الدين، وما يزال يشيد بالنموذج الغربي المادي، مقابل إهمال القيم والأخلاق والفلسفة.

العلمانية والإسلام: أي علاقة؟

تعد العلمانية نظاما اجتماعيا وفكريا، عرف بمبدأ فصل الدين عن الدولة. فما المقصود بالعلمانية؟ ما مدى صلاحيتها في العالم الإسلامي؟ إلى أي حد تعتبر العلمانية العربية طريقا لليبرالية الأوربية؟ كيف يتعامل المجتمع العربي مع بعض الأفكار التحررية، خصوصا ما يتعلق منها بالمرأة والدين والتقاليد؟

كان موضوع "المرأة" و لا يزال يتربع على عرش المواضيع المجتمعية بالعالمين الغربي والعربي. أما المرأة ففخورة تارة بما يقال عنها في إطار "الحركات النسوية"[195] وتزايد المطالبات بحقوقها واستقلاليتها عن الرجل، الذي أصبح ر بطه بالمرأة أمرا صعبا ومليئا بالتناقضات والصراعات الأيديولوجية وحتى الفعلية الناجمة عن العنف.

وتزايدت النصوص التشريعية المدافعة عن المرأة وأصبحت أكثر قوة، لنذكر على سبيل المثال اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة"[196]. والتي جاءت بمقتضيات جديدة تضمن للمرأة حق المساواة في جميع المجالات، حق اختيار وقت الإنجاب وعدد الأطفال، كما عملت المعاهدة على توفير كل ما يلزم المرأة بغية تمكينها من ولوج سوق الشغل حتى خلال الزواج ومهمة تربية الأطفال. وكان أن أكدت مليا على "المساواة بين الجنسين فيما يخص الممارسات السياسية، الحكومية منها وغير الحكومية. بينما لم يذكر الرجل سوى ككل كامل، مكتمل، لا ينقصه سوى أن يتنازل عن بعض من النعيم الذي يغرق فيه للمرأة.

في هذا الصدد، جاء كتاب "رسالة إلى امرأة علمانية"، والذي أردت من خلاله –مع الأخذ بعين الاعتبار كوني لست متخصصا في مجال من مجالات حقوق المرأة أو انتمى إلى تيار معين ذو مرجعية تشدديه أو مناهضة للمرأة- إلقاء الضوء على حال المرأة العربية من جهة، أي إلى أي حد تستجيب المرأة العربية الإسلامية إلى تعاليم الدين الإسلامي الذي خصص للمرأة حصة كبيرة من الحديث، وعن المرأة الغربية التي سعت هي الأخرى في محطات كبرى في التاريخ الأوربي، إلى التحرر وإثبات الذات، خصوصا في علاقتها بالرجل، من جهة ثانية.

---

[195] ملحق، رقم1.

[196] اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة. الأمم المتحدة.CEDAW .

كما رصدت في هذا الكتاب بعض الأشكال التحررية المؤثرة بشكل مباشر وغير مباشر على عقلية المجتمعات العربية في كل المجالات المجتمعية، خصوصا المتعلقة بالدين، حيث ألقيت الضوء، بالاستناد إلى "القران الكريم"، كمرجع أساسي في التعليق على بعض الممارسات الدينية المتعارضة مع جوهر وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وفي مجتمع إسلامي، وقدمت بعض الأسباب وراء ذلك وكان أن ربطت ذلك بـ" التربية"، وأقصد بالتربية ذلك التكامل شبه المثالي الذي قد تقودنا إليه التربية القائمة على الفهم الصحيح "للقران الكريم". و كان هذا بمثابة رد صريح- *في الجزء الأول من الكتاب* -على بعض التيارات اللا دينية العبثية، من قبيل "الإلحاد athéismeأو اللادينية. agnosticisme

وفي إطار حديثنا عن الحريات والممارسات الدينية، كان أن خصصت لـ" العلمانية" حيزا للنقاش والسؤال. ولعل هذا ما اختتمنا به الكتاب، -الجزء الثاني- متسائلين عن صلاحية النظام العلماني باعتباره نظاما سياسيا واجتماعيا يؤيد فصل الدين عن الدولة في مجتمع عربي-إسلامي.

والعلمانية حسب الدكتور "محمد علي البار" هي "الاهتمام بالدنيا فقط"[197]. "ويعرف معجم وبستر العلمانية -secularim- بقوله: "هي العقيدة التي ترى إبعاد الدين عن الدولة والتعليم والأخلاق، وأن تكون جمعيها مستقلة وبعيدة عن تأثير الكنيسة والمؤسسات الدينية، وأن يرى الإنسان أن العقل هو مصدر خلاصه ولا الدين، وبالتالي رفض كل الغيبيات وما وراء الطبيعة [198]".

ويعرف معجم أكسفورد العلمانية باعتبارها ذلك الرأي الذي يقول: "لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية والقيم، وإن العلمنة هي تحويل ممتلكات الكنيسة ومؤسساتها إلى الدولة لخدمة الأمور الزمنية [199]".

وتعرف" دائرة المعارف البريطانية "العلمانية -secularism-بأنها "حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها... ثم تطورت باستمرار كحركة مضادة للتدين والدين المسيحي على وجه الخصوص."[200]

---

[197] علي البار، محمد، العلمانية، جذورها و أصولها، دار القلم، دمشق، 2008، ص، 11-12.
[198] نفس المرجع.
[199] نفس المرجع.
[200] نفس المرجع.

ويعرف المعجم الدولي الثالث العلمانية "بأنها اتجاه في الحياة يقوم على مبدأ أن الدين والاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل في الحكومة، والعلمانية نظام اجتماعي في الأخلاق ومؤسس على فكرة وجوب قيام السلوكية الأخلاقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين[201] ".

ويعرفها معجم علم الاجتماع المعاصر بقوله: "علماني، دنيوي، غير روحي، غير ديني، والعلماني هو العقلاني والنفعي .والعلمانية هي منظومة كاملة تحتوي على ميتافيزيقيا-وهو أمر متناقض فهذه الكلمة تعني ما وراء الطبيعة، أي الغيب، وهم ينكرون الغيب أساسا-واضحة الرؤية، شاملة للكون، ترفض الإيمان بالآخرة والغيبيات، ولها أخلاقياتها المبنية على العقلانية والنفعية".[202]

وتساؤلنا عن صلاحية العلمانية كنظام اجتماعي في المجتمعات العربية الإسلامية، لم يكن بمحض الصدفة، وذلك لأننا ننتمي لمجتمع عربي وإسلامي ألا وهو المغرب، ولأننا نجاور بلدانا علمانية من قبيل "تونس" ونتشارك العديد من الخاصيات الثقافية مع عدة مجتمعات عربية وإسلامية. وكوننا نتشارك معهم في الدين والعرق واللغة، فذلك يفرض علينا الغيرة عنهم ونصيحتهم إن كان ذلك مجديا.

أولا، يعد الدين الإسلامي دينا كونيا، جاء لتوحيد البشر وحثهم على التعاون والتضامن والتعايش والعدل. وكونه كذلك، فله كتاب ألا وهو القران الكريم، ورسول ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وله بذلك مشروعية قصوى- بعد أن حرفت التوراة والإنجيل- في إعادة إصلاح الأرض، مصداقا لقوله تعالى" :ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**[203]**."

والقران الكريم، كتاب عظيم، ولغته فصيحة، عظيمة، وهو بذلك دستور المسلمين وكتابهم المفضل وذريعتهم ضد الفساد والطيش والعصيان. ولذلك، قام العديد من المفسرين بدراسته و تفسيره- تفسير ابن كثير، الإمام محمد الطبري "- ...هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ

[201] نفس الرجع.

[202] نفس المرجع.

[203] سورة الأعراف، الآية، 56.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"[204] - بغية جعله مفهوما، قريبة معانيه من العامة و الخاصة، أقصد الناس اللذين لم يكتب لهم لسبب أو لأخر أن يتعلمون القراءة.

وهي مسؤولية عظيمة بعظمة الكتاب ومعانيه ومنزلته جل جلاله. لذلك ركزت في هذا الكتاب على أهمية ما نسميه ب " التنشئة الاجتماعية" أو التربية بمعنى شامل.

ولعل انحراف المجتمع العربي الإسلامي، - أقصد عجز علمائه ومربييه ودعاته عن تكوين مجتمع عربي إسلامي، وحدة واحدة، يجمعها الحب، والإتحاد والتمسك بحبل الله تعالى، وهذا العجز ما هو إلا صعوبة في تحويل ما جاء به القران الكريم في قوالب مفهومة، تستهدف كل فئات المجتمع، فتختلف دون أن تزيغ عن الجوهر والأساس، ألا وهو توحيد الله عز وجل واجتناب الشر وفعل الخير. - نابع لا محال من سوء فهمه لتعاليم الدين الإسلامي وعجز علمائه ومربييه على الوصول إلى ما وصل إليه الغرب عن طريق "العلمانية."

لقد دخل العرب المسلمون في صراع لم يكن يجب عليهم الخوض فيه بتاتا. إذ أن ظهور مفهوم "الحداثة" في أوربا بعد الحرب العالمية الأولى، في محاولة المجتمع الأوربي فعل قطيعة مع ماضي الحروب وفساد الكنيسة واحتكارها لكل السلط، نتج عنه ما يسمى بالتقليد ولعل هذا السبب هو الذي لا يزال يغذي لا مبالاة المجتمعات الأوربية تجاه الدين، وهو الذي يغذي بالمقابل رغبتهما المتزايدة في التحرر. والحرية في الإسلام قديمة العهد وعظيمة الشأن، وليس الإسلام ضد الحرية، يقول المولى عز وجل في كتابه:

"لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"[205].

والحديث عن الحداثة في المجتمع العربي الإسلامي، هو بمثابة حل لغز "برمودا" "أو الثقب الأسود"، إذ تجد بين مؤيد ومعارض، محايدا. فالمعارض هو التقليدي، المتحجر، المرتبط ارتباطا ما دونه ارتباط بالقديم. والمؤيد وهو المعترف تارة أو غير معترف بالقديم ويمجد الجديد. وهذا التنافر البدئي بين معارض ومؤيد، هو الذي ولد المحايد. والمحايد هنا هو العلماني، الذي يتهرب

[204] سورة آل عمران، الآية 7.
[205] سورة البقرة، الآية، 156.

من الدين، ومن المسؤولية والكمال. المحايد هو الذي لا شأن له بالدين وغلبته شهوات الدنيا وحاجه الشيطان في صلاحية اللامبالاة والتحرر.

وادعاء "العلمانية" في هذا الباب العقلانية- كما *جاء في معجم علم الاجتماع المعاصر* -هو تناقض واضح. بحيث أن الاكتفاء بالعالم الملموس وحده كسبيل وغاية في نفس الوقت هو تجسيد لحدود لا يتسم بها العقل البشري. يجب أن يكون العقل باحثا كفئا عن الحقيقة. أما الهروب والتنازل والرغبة الجامحة في التحرر-وأقصد بالتحرر في العالم العربي الإسلامي، تحرر المرأة –على سبيل المثال-من الحجاب، خروجها إلى العمل، حريتها في اختيار الرجل المناسب، تحررها من سلطة الأب أو الولي، حريتها في اختيار العقيدة...- ومحاكاة الغرب، فهو ليس إنجازا بقدر ما هو عملية تعطيل تدريجي لعجلة الفكر العربي الإسلامي، وهو تزكية ودعم للفكر الغربي الليبرالي، العلماني، المادي، النفعي، المتحرر .*بحيث، ليس الإنسان في حاجة للتحرر-عموما- وليست المرأة العربية الإسلامية في حاجة لحركات نسوية حتى تحررها من...لا أعلم... لأنها مبدئيا حرة.*

ولا أكاد أبالغ إن قلت هذا، ما دمنا في إطار مقارنة بين مفهوم الحداثة في الغرب وإسقاطاتها في الشرق إسقاطا عموديا لا يراعي خصائص السياق التاريخي والثقافي والديني. فالحرية في أمريكا ليست هي نفسها في العالم العربي برمته. إذ أن الأمريكيات كن السباقات للتحرر عن طريق ما أطلق عليه آنذاك-ثمانيات القرن الماضي- بحركة تحرير المرأة والتي ستأخذ اسم "الحركة النسوية" في الموجة الثانية، في حين كان أن ركزت الموجة الأولى –التي يعتبر مؤتمر "سينكافولتر" سنة ثمانية وأربعين ثمان مائة وألف، بنيوورك-الولايات المتحدة الأمريكية انطلاقة فعلية لها حيث ركز على المساواة بين الرجل والمرأة في جميع المجالات، وكان أن توجت جهودهن آنذاك، بتعديل في الدستور الأمريكي، ضامنا للمرأة ولأول مرة، سنة 1920 حق التصويت.

وكان هذا بمثابة إنجاز عظيم حققته الحركات النسوية بالولايات المتحدة الأمريكية. بحيث أن نمو هذه الأخيرة أصبح بمثابة "موضة"، نعم، لأن للحرية طعم وكل ما اقترب موعد إطلاق سجين، على سبيل المثال، كلما ازدادت لهفته وترقبه للنور، للمقهى، لليل، للحب، للحياة... كذلك وقع ويقع- في الغرب.

ما ذا يقع لـ "اللاشعور" العربي؟

لقد " لا حظ علماء النفس أن هناك أنواعا من السلوك تصدر عن الفرد البشري بدون شعور منه، وهي تختلف عن ردود الفعل الآلية في كونها هادفة، تلبي حاجات معينة وتنزع إلى تحقيق رغبات خاصة ومع ذلك فهي لا تخضع لمراقبة "الأنا". وبما أن الأفعال الإرادية الخاضعة للمراقبة الشعورية، يقال عنها أنها تصدر عن "الشعور"، فإن الأفعال الهادفة التي لا تخضع لمثل هذه المراقبة قد نسبت إلى منطقة أخرى من الجهاز النفسي، أطلق عليها اسم "اللاشعور". و معلوم أن عالم التحليل النفسي الشهير "سيغموند فرويد" قد أولى أهمية خاصة لـ"اللاشعور"، إذ جعل منه منطقة واسعة من الجهاز النفسي تضم الدوافع الغريزية و الرغبات المكبوتة، و اعتبره مسئولا عن قسم كبير من سلوك الفرد البشري و هو يكشف عن نفسه من خلال الأحكام و فلتات اللسان و غيرها من الأفعال غير الإرادية، و هكذا صار السلوك البشري يصنف إلى سلوك صادر عن "الشعور"، عن وعي و قرار و تصميم، و سلوك صادر عن "اللاشعور" لا تتحكم فيه إرادة المرء، بل يفلت من الرقابة الشعورية، رقابة "الأنا"، ليلبي حاجات غريزية دفينة أو رغبات مكبوتة منذ الطفولة."[206]

ما الذنب الذي اقترفه "الإنسان" العربي حتى ينطوي هذا الانطواء المفرط على نفسه؟ ماذا يقع في صميم "لاشعور" الإنسان العربي؟ وهل لم يعد هناك أطباء وعلماء تحليل نفسي مؤهلين لاستدراج هذا الإنسان حتى يعبر بوضوح عما يعتريه من مشاعر مكبوتة؟ من وكيف سيقضى على هذا الخوف من البوح؟

إن الكارثة وحدها، يقول الدكتور هاشم صالح، أو الزلزال، قادران على زحزحة السؤال. الكارثة وحدها قادرة على فضح بداهة السؤال، على إماطة اللثام عن وجه السؤال. لهذا السبب، يضيف الدكتور صالح، يبدو الفكر – في أوله- بمثابة "فضيحة". كل فكر لا يفضح، لا ينبش، لا يعري، ليس فكرا. لذلك فإن الفكر الذي قد يظهر في الساحة العربية الإسلامية عما قريب، سوف يبدو فضائحيا بامتياز، وربما راح يشتغل تحت العنوان العريض: الحفر "الأركيولوجي" في الأعماق.[207]

---

[206] الجابري، محمد عابد، العقل السياسي العربي، محدداته و تجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، 2001، ص.9.

[207] الدكتور، صالح، هاشم، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ دار الساقي، 2007، ص.7.

ويجيب هاشم صالح عن سبب هذا الهوس بالحفر والتعرية، قائلا: "إن الأرض العربية الإسلامية عطشى للحقيقة"[208].

والحال أن من أهداف بحثنا المتواضع، الدعوة إلى جمع شمل العرب المسلمين، دون الخروج عن تعاليم الدين الإسلامي والتي تضمن كل السبل لتحقيق الوحدة، ليس فقط في مجتمع أو قبيلة، بل بين كل شعوب وثقافات العالم باختلاف أجناسها ولغاتها. ولعل هذا ما يغيب في المجتمعات العربية الإسلامية: هذه الغيرة عن الوطن والأمة والقومية العربية. حتى إن "الجابري" صرح قائلا بأن العقل العربي قد قدم استقالته استنادا إلى المشروعية الدينية ودعا بالمقابل إلى تحويل القبيلة إلى مجتمع منظم مدنيا واجتماعيا وسياسيا، مما يعني أن المجتمع العربي يعيش أزمة على مستوى التنظيم الاجتماعي، وتغذيه الطائفية والنزاعات المدنية التي تنطلق من الأسرة والعنف المدرسي، والشارع العربي بصفة عامة. الشيء الذي دفع " مصطفى حجازي" في سياق آخر، وضمن ندوة فلسفية أقيمت بـ "تونس" سنة 1988، إلى التأكيد على ضرورة " تحول الذهنية "اللانفصالية" "التجزيئية" إلى ذهنية "وحدوية" "تأليفية"، وتحول "عقلية النفوذ" إلى "العقلية المؤسسة"، والتحول من التوجه الذهني "الاستبدادي" إلى العقلية "الديمقراطية"، والتحول من "القطيعة الذهنية" إلى "العقلية العلمية" و "الإبداع"[209].

إن الأمة العربية الإسلامية، تعيش أزمة "وحدة". الشيء الذي أفقدها هويتها، ومزق وعيها، وأسهم في تدهور واضطراب "شعورها" وعمق "جروح "لا شعورها"، فغدا الإنسان العربي مهزوما، مجرما تصدر عنه أفعال "المجانين" وأقوال "المختلين" عقليا.

ومادام " لكل فعل "محددات" وتجليات، بحيث إن المحددات قد تكون دوافع داخلية بيولوجية أو سيكولوجية، شعورية أو لا شعورية، وقد تكون تنبيهات أو تأثيرات خارجية - أما التجليات فهي المظاهر والكيفيات التي يتحقق الفكر فيها أو من خلالها أو بواسطتها"[210] - فإننا نتساءل عن محددات تدهور واضطراب "كينونة" الإنسان العربي، اعتبارا لكون المجتمع يتكون من أفراد، ولا يمكن محاسبة المجتمع إلا من خلال "الأوعية" – جمع وعي- أي "الأفراد؟

[208] صالح، هاشم، الانسداد التاريخي... ص.8.

[209] حجازي، مصطفى، مصدر انف الذكر.

[210] الجابري، محمد، عابد، العقل السياسي العربي، محدداته و تجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2001.ص.7.

إن من مسببات التخلف الذي تشهده الأمة العربية الإسلامية، هو سوء فهم وتفهم النص القرآني والعمل به. مما يعني أن هناك تضاربا واختلافا في المعتقد. والجدير بالذكر أن معظم هذه الاختلافات نابعة من الجهل أو الأمية أو هما معا. فالمجتمع العربي اليوم- خصوصا داخل المجتمعات الفقيرة- لا يهمه سوى البحث عن الطعام، والعيش في أمان، بعيدا عن الفكر والسؤال والمعرفة، نظرا لخصوصية الفكر الذي لا يجرؤ عليه " إلا هؤلاء الذين أصيبوا بجرح عميق أو في العمق، هؤلاء هم وحدهم الذين يستطيعون أن يدخلوا حلبة الفكر ومعمعة الفكر... لأنهم خسروا كل شيء تقريبا، ولأنهم كانوا قد دفعوا الثمن مسبقا ودفعوه باهظا."[211]

إن معظم المقاهي العربية الإسلامية اليوم، تقدم النبيذ والمخدرات والموسيقى مقابل المال. والإنسان العربي يبدو في حاجة ماسة إلى ذلك: هذه من بين "المحددات" الرئيسية، المؤطرة لـ "انهزام" الإنسان العربي- العقل العربي- وبالتالي المجتمع والأمة-، فهناك من يرى هويته في مغنية "سويدية" وهناك من تراه في مغني "بوب" "أمريكي". لقد ضاعت الهوية العربية بضياع العمل وفقا لما أملاه علينا ديننا الإسلامي المعتدل!

وطبيعة الجهل الذي يتخبط فيه الإنسان العربي هو ما سماه "أفلاطون" "الجهل المزدوج"[212]، أو "الجديد"، وهو الجهل بالأمور وادعاء معرفتها. أما "الجديد" فهو: " الأشكال المستحدثة الرهيبة للغاية التي يرتديها اليوم. الجديد هو ذهنية التجريد التي ضاعفت قوتها التقنية نفوذها عشر مرات. الجديد هو التدمير الذاتي العالمي للثقافة ونتيجته هي العنف."[213]

ويقول في هذا الصدد، "الدكتور محمد حسن أبو يحيى"، في كتابه "التجديد في الفكر الإسلامي: مفهومه، أهميته، ضوابطه":

" إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يدعو الأمة الإسلامية أفرادا وأسرا وجماعات إلى الوحدة، لأن عقيدتهم واحدة وكذا عباداتهم ونظمهم الإسلامية الأخرى، كالنظام الأخلاقي والسياسي والاجتماعي والتربوي والتعليمي والجهادي ونظام العقوبات والمعاملات والاقتصاد. والفكر الإسلامي جزء لا يتجزأ من الإسلام، ولهذا فإنه يكون أداة طيعة لوحدة الأمة فكريا وفي المجالات كافة. والأمة الإسلامية اليوم أحوج ما تكون إلى الوحدة الشاملة، ومن مهام تجديد الفكر، العمل

---

211 صالح، هاشم، الانسداد التاريخي...ص.6.

212 دو كونانك، توما ، الجهل الجديد و مشكلة الثقافة، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ص. 6.

213 نفس المرجع، ص.7.

على تنقية الأفكار القومية التي تدعوا إلى التفرقة بين الشعوب الإسلامية وعدم وحدتها، لأنها أفكار غير إسلامية."[214]

و قد نبه المفكر المسلم الكبير، "جمال الدين الأفغاني" إلى أن" تخلص الأمة الإسلامية من الجهل و التخلف الاقتصادي، لا يمكن أن يتحقق بمجرد التقليد ومحاكاة ما فعله الأوروبيون، لأن التجربة الأوروبية جاءت ثمرة لنظام اجتماعي له إطاره الفكري و قيمه وضوابطه القانونية، فلا يمكن للمسلمين أن يحققوا التقدم العلمي و النهوض الاقتصادي إلا بإصلاح المجتمع و تخليصه من الفساد- كما قال الحامدي في تعريف العقل، و الذي يسميه بـ "العقل النافي"[215]، أي الذي ينفي واقعا فاسدا، ليحل محله واقع مشرق- و هذا الإصلاح الاجتماعي لا يتحقق – في رأي الأفغاني- إلا بتحقيق الرفاهية الاجتماعية عن طريق توفير العدالة الاجتماعية بمفهومها الإسلامي و تنمية مواهب الفرد و وعيه و فكره من خلال نظام تعليم سوي" . فهو يدعو إلى " قطف ثمار الغرب وإعادة بناء وحدة الأمة الإسلامية... وتجاوز الخلافات العقيدية، الخصومات التقليدية والاختلافات الطائفية..."[216].

ولعل الأزمة "الشعورية"، "الذاتية" التي يعيشها "الإنسان" العربي اليوم، مردها إلى ذلك الحوار غير المؤسس له، وذلك الصراع الأيديولوجي، الذي نشأ بين الغرب والشرق الإسلامي، والذي لم ينتهي بل تحول ومسخ، فغدا شيئا آخر. إن المجتمعات العربية الإسلامية لاهية عن الفكر. وهي بذلك لاهية عما أوصى به المولى عز وجل، في العديد من آيات الكتاب الكريم. آيات تدعو إلى التفكر في الكون والمخلوقات، حتى ينجو المتأمل من دوامات الدمار النفسي والحزن، الناتج عن البعد عن الله وطريق الصواب، ويعمل على المساواة بين الجانبين الطبيعي-المادي والإنساني-الروحي في الإنسان. مما يقتضي و يحتم على الأنظمة التعليمة و الفاعلين السياسيين و الحكوميين، و المسئولين و أصحاب القرار من أولي الألباب و المؤمنين الصالحين الذين يخافون الله و يحبون الخير، و العلماء و العارفين، و كذلك الشباب العربي، الذي يعول عليه كثيرا في إعادة إحياء العقل العربي الإسلامي، عن طريق إحياء الجانب "الثقافي" و "الفكري" الذي لا يمكن

---

[214] أبو يحيى، حسن، محمد، التجديد في الفكر الإسلامي، مفهومه، أهميته، ضوابطه، دار يافا العلمية للنشر و التوزيع، يناير، 2011.، ص.51.

[215] وهبة، مراد، الفلسفة في مؤتمرات، سبقت الإشارة إليه.

[216] أ.د، حامد، عباس، رؤوف، تطور الفكر العربي الحديث، موسوعة الثقافة التاريخية و الأثرية و الحضارية، القاهرة، ص، 24.

عزله عن الممارسة العقائدية الصحيحة و النابعة لا محال من حسن تأويل الكتاب و الحديث و حسن تعليم و تنشئة المواطن العربي، باحترام حقوق المرأة التي منحها الدين الإسلامي مكانة راقية، و احترام حقوق الفقراء و المحتاجين و الأقليات الاجتماعية التي، و إن كانت مطالبها غير معقولة و غير منطقية، فالعقل قادر على تحقيق كل شيء.

إن الأزمة الشعورية التي يعيشها العالم العربي الإسلامي اليوم، لا تكاد تكون نابعة إلا من يشيء واحد: التأثر بالمادية الغربية وتوابع النظام الرأسمالي، وماضي الكنيسة بأوروبا. في المقابل، نجد العقل العربي منهمكا في التقليد، ونجد أعظم مفكريه ومثقفيه، يعيشون في الضفة الأخرى، في معقل الغرب: بنيويورك وبرلين وباريس وجنيف. تجد، لسوء الحظ، في مدرجات الجامعات العربية، كتبا ونظريات غربية، لا يكاد الدرس الجامعي بمختبر بكلية للعلوم، في معقل جامعة أو معهد عربي، أن يتم لولا نظرية "أينشتاين" أو " نيوتن". ولا يكاد الطالب الجامعي لا يعرف الفن والموسيقى إلا عن طريق مجموعات "الروك" الأمريكية والانجليزية"، بل لا يكاد القارئ العربي اليوم يقرأ لولا كتب "دوستويفسكي" و" كونديرا"، و "كامو"، أو" فولتير" الذي يدرس في الثانويات العربية، وكأن "الخبز الحافي"، لا يتناسب مضمونه مع الواقع العربي التقليدي ذي العيوب. إننا فقدنا هويتنا العربية، بفقداننا أسس التكوين الداخلي –العربي الإسلامي- مهرولين تجاه الثقافة الغربية، ممجدين منجزات حضاراتها المادية، مهملين تراثنا والأكثر من ذلك، مستقبلنا الذي يجب أن نبنيه اعتمادا على ذلك النقد الإيجابي للتراث وتلك القراء ة التحليلية العقلانية للبنيات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية المحلية، متجاوزين كل الصراعات الأيديولوجية ذات الوقع الخطير على أمالنا وأمل الأجيال التي ناضلت قبلنا، أمل عودة فصل الربيع إلى الأرض العربية الإسلامية العطشى للمجد!

وقد قام الرئيس المفكر البوسني ورئيس البوسنة السابق، الدكتور "علي عزت بيجوفيتش" بتفسير هذه الهيمنة المادية داخل الحضارة الغربية. معتبرا أن "الحضارة" والثقافة شيئان مختلفان. ويذهب إلى اعتبار أن الثقافة ذات أصل ديني" إثر ما سماه المؤلف بـ "التمهيد السماوي"[217]. وبالتالي فالثقافة هي "تأثير الدين على الإنسان وتأثير الإنسان على الإنسان... الثقافة شعور دائم الحضور بالاختيار وتعبير عن الحرية الانسانية "[218]... في حين أن الحضارة

217 بيجوفيتش 44.

218 بيجوفتسش 44

تعمل عكس ما جاءت به الشريعة الإسلامية الداعية إلى كبح الشهوات، فالحضارة تعمل تحت شعار " أخلق شهوات جديدة دائما وأبدا"[219]، والحضارة "فن يتعلق بالوظيفة والسيطرة وصناعة الأشياء، تامة الكمال... إنها.. استمرارية التقدم التقني وليس التقدم الروحي...كما أن التطور "الدارويني" هو استمرارية للتقدم البيولوجي وليس الإنساني"[220].

وينطلق بيجوفيتش من سؤال مركزي: "ما الإنسان؟" لينتقد بذلك وبطريقة غير تلك التي سلكها العديد من منتقدي نظرية التطور الداروينية"، والتي تعتبره بداية للتفسير المادي للتاريخ حسب المؤلف وأصل المادية التي تغزو المجتمعات الغربية اليوم ومنذ عقود. فكان أن أقر أن المدافعين عن نظرية التطور هم على خطأ فيما يدعون وما يؤمنون به، نافيا بذلك كون الوجود هو وليد "المصادفة" أو الصدفة. لسبب واحد هو إن "التصميم لا بد أن يسبق الصدفة"[221]. مما يشير إلى وجود قوة "ماورائية"، تفوق الطبيعة ولا تحل فيها عكس ما يؤمن به بعض دعاة وحدة الوجود[222]. إن " ثنائية الوجود الإنساني – ثنائية الوجود المادي والروحي- لا يمكن تفسيرها وضمان بقائها واستمرارها إلا بافتراض ثنائية أخرى، هي ثنائية الخالق والمخلوق، ثنائية تأسيسية لا يمكن ردها إلى ما هو خارجها."[223]

ويرى بيجوفيتش أن نظرية التطور الداروينية " لا تفسر كيف لم يتغير تاريخ البشرية الجواني كثيرا... – فالإنسان –بأخطائه وفضائله وشكوكه وخطاياه... يشكل وجده الجواني- يبرهن على عدم قابليته للتغير. فدراسة رسوم إنسان "نياندرتال" في فرنسا تبين أن الحياة النفسية للإنسان البدائي لا تختلف إلا قليلا جدا عن الحياة النفسية للإنسان المعاصر."[224]

والسبيل الذي نهجه بيجوفتش لينتقد نظرية التطور هو لومها على إهماله الكلي للجانب غير المادي-البيولوجي للإنسان، أي الثقافة الإنسانية بما في ذلك، الدين والأخلاق والفن...- يقول ألبير كامو إنه لولا غموض العالم لما وجد الفن- وهي ظواهر خاصة بالإنسان وتشير إلى وجود عالم

---

219 بيجوفتش 45.

220 بيجوفيتش 45

221 بيجوفيتش ص.16.

222 نفس المرجع ،15.

223 بيجوفتش ص.15.

224 بيجوفيتش .ص.17.

آخر، غير العالم الطبيعي، المادي.[225] والأكثر من ذلك أننا "لا نستطيع أن ان نجد أثرا لعبادات او محرمات أو مقدسات في أكثر أنواع الحيوانات تطورا"[226].

225 نفس الصفحة.

226 نفس المرجع، ص.18

خاتمة

إن مواضيعا من قبيل "الفكر العربي" و "جدلية التحديث والحداثة"، و "صراع المشاريع الفكرية" وتهافتها نحو تحقيق الانتصار، وإيجاد ومعالجة النقص الذي يعرقل عجلة التقدم الفكري وبالتالي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي، لـ "مواضيع شائكة". والقول بتداخل هذه المواضيع وتفاوت تعقيدها، لا يدعو أبدا إلى الانحناء لصعوبتها، أو التخلي عن دراستها وإخضاعها للسؤال والنقد والتمحيص، لأن في ذلك استسلاما وانهيارا أمام الطبيعة، الطبيعة الإنسانية، واعتراف صريح بقصور العقل البشري.

وبناء على هذا القول، لا بد أن نعترف أولا وقبل كل شيء بأمرين رئيسين، لا يمكن للقارئ أن يتغاضى عنهما مهما تطلب الأمر. الأمر الأول، هو إن موضوع الفكر العربي والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والمناهج الفلسفية... لا تدخل ضمن تخصصنا بالجامعة. والأمر الثاني، يقتضي على القارئ- حتى نعقد اتفاقا مسبقا- أن يعمل الفكر في بعض القضايا والأسئلة التي تتخذ في الكتاب مواقع مختلفة. والحال أن الدراسة المتواضعة هاته، تميل إلى تبني أسلوب فلسفي، تجريدي نوعا ما، حيث لا يمكن التصريح بشكل مباشر وبلغة سهلة وواضحة – كما لدى الدكاترة الجامعيين مثلا- عن بعض القضايا!

هذا من جهة، من جهة أخرى، يجدر التذكير بأهم ما جاء في هذه الدراسة المتواضعة والموسومة بـ "الفكر العربي: بين عقلانية الغرب وتبعية الشرق- "كيف سنواجه اللاعقلانية العربية؟" ما هو إلا لتسليط الضوء على أهم القضايا الفكرية التي تصنف ضمن معيقات التطور داخل الأرض العربية الإسلامية، وتهدد تدريجيا كينونة الإنسان العربي وتسيء إلى كيانه وشعوره، في ظل غياب فعلي وصريح، بل ومستمر ونابع من النية الصادقة والحس الصالح والرغبة المخطط لها، بعد الوعي بحيثياتها، في التغيير وإعادة الاعتبار بذلك للعرب المسلمين، الذي لا يكاد التاريخ يكتمل إن تجاوز المؤرخ منجزاتهم الخالدة، في شتى ميادين الحياة المجتمعية.

فكان أن تحدثنا عن تأثير النموذج الحداثي الغربي على الثقافة العربية الإسلامية وحضارتها أيضا. مبرزين كون الحضارة الغربية تعيش نوعا من التناقض الجدلي، والذي مفاده أنها حققت الحداثة وبدأت في الحديث عن "ما بعد الحداثة". وهذا أمر فيه من الاستعجال والتهرب ما يكفي

لعكس القول. كما أشرنا إلى اللاعقلانية المادية الغربية المتمثلة في الفكر ما بعد البنيوي الذي دعا له مجموعة من المفكرين من أمثال دريدا. والذي يعترف أن فكر ما بعد الحداثة لا هدف ولا غاية له وهو بالتالي أشبه بالجنون ودريدا كما نيتشه يعترفان بذلك.

في هذا الصدد هناك من المفكرين العرب المسلمين المعاصرين من يعرف الحداثة باعتبارها "حالا" و"مآلا"، أي أنها تحيل في هذه الحالة على الجمود والركود والسكون وغياب الحركة، تحيل على الكمال والتجانس والتوافق، تحيل على المثالية. لذلك، كان أن بينا كيف أن الحضارة الغربية تخلط بين "التحديث" و "الحداثة" و "التغريب"، حتى إن هناك من مفكريها من لاحظ هذه الهفوة ورأى في التحديث "أوربي التمركز" ضربا من ضروب إقصاء "حداثات" أخرى، من القائم أن تقوم لولا الهيمنة الأوربية- الغربية التي تتجسد في "الحركات الامبريالية- الاستعمارية" التي طالت دول الجنوب، وتتجلى أيضا في الحروب والمذابح والإقصاء والعنصرية التي تخضع لها وخضعت لها مجتمعات الجنوب المهمشة والتي تم تصنيفها من فوق في إطار ما يسمى بـ "دول العالم الثالث".

كما حاولنا الكشف عما يبدو لنا سبب الأزمة الفكرية التي يعيشها العالم العربي الإسلامي. فكان أن تطرقنا لموضوع الانسداد التاريخي، الذي يعتبره البعض راجع إلى مسألة رفض إخضاع النص القرآني إلى التأويل المجازي، شأنه في ذلك شأن النص الأدبي. والحال أن السياق التاريخي والثقافي العربي الإسلامي يختلف عن السياق الغربي الأوربي، وبالتالي فنظرة الغرب إلى الدين هي نظرة ماضوية نابعة من الجرح العميق الذي سببته الكنسية وسلطة باباواتها في أوروبا، قبل النهضة وقبل استيقاظ "مارن لوثر" والعديد من المثقفين.

لذلك، كان أن خصصنا "للمثقف" مكانة مهمة في هذا البحث. وركزنا على علاقته بالجمهور، أي بتلك الفئة الاجتماعية التي تفتقر إلى المعرفة والعلم الكافيين لفهم وتفهم المفكر، والتي تكتفي باستهلاك المواد والأفكار، وتبني الأيديولوجيات المتطرفة والمتشددة بغير وعي. كما بينا الدور الكبير الذي يلعبه ويجب أن يلعبه في التصدي للإهانات التي قد تتعرض لها أمته، ثقافته أو دينه، كما هو الشأن لـ "المستشرقين"، ويشترط في المثقف العقل والصواب وعدم التناقض.

والتناقض الذي من القائم أن يقع في فخه مجتمع أو أمة، هو التقليد. وهو ما حصل في العالم العربي الإسلامي، حيث انكب المصلحون على محاكاة الغرب في كل شيء. فأصبح الإنسان العربي

بفعل ذلك، مغتربا، فاقدا للهوية، بعيدا عن دينه الإسلامي، مسافرا في عوالم العالم الجديد، التي تتيح هي الأخرى نوافذ استلاب العقل والذات.

وحتى لا نطيل، تجدر الإشارة إلى أن ما تطرقنا له من مواضيع، وما طرحنا من أسئلة، وما أخذتنا إليه لغتنا وفكرنا وتفكيرنا، وما أملته علينا ظروف البحث، وسيكولوجية التنقيب عن المعلومة، وعناء التنقل بين أرجاء المدن ذات المكتبات، خصوصا في ظل الجائحة التي عصفت بالعالم بداية ربيع هذه السنة، والتي أفضت إلى عرقلة الحياة الاقتصادية والفكرية كذلك، يمثل إطلالة سريعة عن واقع الفكر العربي وبداية لفهم ثلة من القضايا الفكرية التي تحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد العقلي لكي تفهم-بضم الواو- وتحل.

لائحة المراجع المعتمدة في البحث

كتب ودراسات نقدية

د. سمير، حميد، نموذج الحداثة وما بعدها في الفكر العربي الحديث، قراءة نقدية، تكوين للدراسات والأبحاث، 2017.

المسيري، عبد الوهاب، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، ط.3-2010.

عوض، محمود، متمردون لوجه الله، دار الشروق، 1980.

هربرت.أ. شيللر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، يناير، 1978

الشريف، زروخي، العقلانية والتنوير في الفكر العربي المعاصر، قراءة في مشروع ناصيف نصار، دار ومكتبة عدنان، 2013، بغداد، العراق.

دزدار، ساند، العقل زينة، أزمة الحداثة في الوطن العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، فبراير،2017، بيروت، لبنان.

سبيلا، محمد، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2009.

فارح، عبد الفتاح، البحث العلمي في التراث الإسلامي. مطبعة وراقة بلال، 2013.

عبد السلام، بنعبد العالي، الفلسفة أداة للحوار، دار توبقال ،2011.

أرسلان، شكيب، لماذا تأخر المسلمون؟ الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

الجابري، محمد عابد، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، 2001

حسين، الحاج، حسن، النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، لبنان،1996.

لوبون، غوستاف، سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي،1991.

العقاد، عباس، محمود، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، شتنبر، 2005.

حامد، عباس، رؤوف، تطور الفكر العربي الحديث، موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية، القاهرة.

وهبة، مراد، الفلسفة في مؤتمرات، المكتبة الأنجلومصرية، 1994.

هاشم صالح، الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ دار الساقي، 2007.

طرابيشي، جورج، مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقي. 2012.

كامل، عبد الله، عمر، التصوف بين الإفراط والتفريط. سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح.2008.

أبو يحيى، حسن، محمد، التجديد في الفكر الإسلامي، مفهومه، أهميته، ضوابطه، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، يناير، 2011

الحري، عبد الله، طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري، صراع المشروعين على أرض الحكمة الشردية. الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2014.

القصير، بن عبد العزيز، أحمد، عقيدة الصوفية، وحدة الوجود الخفية، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض،2003.

عبد الرحمان، طه، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، 2016.

، بيجوفيتش، علي عزت، الإسلام بين الشرق والغرب، دار الشروق.1994.

أ.س. رابوبرت، مبادئ الفلسفة، ترجمة د. أحمد أمين، مؤسسة هنداوي2014.

توما دو كونانك، الجهل الجديد ومشكل الثقافة، ترجمة منصور القاضي. مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2004.

صبره، عفاف، المستشرقون ومشكلات الحضارة، دار النهضة العربية، 1985.

د. محمد السيد الجليند، الاستشراق والتبشير، قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999.

الشرقاوي، عبد الله، محمد، الاستشراق، دراسات تحليلية وتقويمية، كلية دار العلوم-جامعة القاهرة.

إحسان، محمد، الحسن، مناهج البحث الاجتماعي، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2005.

الخديمي، علال، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب.1894-1910، حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية، أفريقيا الشرق،2006.

سلوم، توفيق: نحو رؤية ماركسية للتراث العربي، منشورات دار الفكر الجديد، بيروت،1988.

سعيد، إدوارد، المثقف والسلطة، رؤية للنشر والتوزيع،2010 .

علي الوردي، في مهزلة العقل البشري، دار كوفان، لندن، 1994.

حنفي، حسن، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، 2012.

زكرياء، فؤاد، نيتشه، دار المعارف، مصر، 1956.

زيدان، محمود، مناهج البحث الفلسفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977.

الدكتور هاشم صالح، العالم العربي واستحقاقات التنوير، مجلة مؤمنون بلا حدود. 26 سبتمبر 2016.

الجابري، محمد، عابد، العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2001

عطية، عبد الحليم، أحمد، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، الفكر المعاصر، سلسلة أوراق فلسفية، دار الفارابي 2010.

موسى، سلامة، اليوم والغد، المطبعة العصرية، القاهرة، 1927، ص 241. 257.

هيكل، حسن، محمد، في أوقات الفراغ، مجموعة رسائل أدبية، تاريخية، فلسفية.

كرام، زهور، في ضيافة الرقابة، من خلال التجربة الإبداعية لـ "ليلى عثمان"، منشورات الزمن، مارس، 2001.

علي البار، محمد، العلمانية، جذورها وأصولها، دار القلم، دمشق، 2008.

فارح، عبد الفتاح، البحث العلمي في التراث الإسلامي. مطبعة وراقة بلال، 2013.

كيليطو، عبد الفتاح، الأدب والغرابة، دراسة بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، ط3، 2006.

كامو، ألبير، الغريب، ترجمة أيت حنا محمد، منشورات الجمل، ط1، 2014.

مراجع أجنبية

Laurens. Renan en son temps : la place de l'Islam dans son œuvre. In: Cahiers de .l'Association internationale des études françaises, 2010

M.C. Brockelmann, Précis de Linguistique Sémitique, traduit de l'allemand (avec Marçais, directeur de la Medersa d'Alger et M. Cohen, remaniement de l'auteur) par W. Paris, 1910. agrégé de l'université. Librairie Paul GEUTHNER,

Qotb, Hani, vers une didactique du français sur objectifs spécifiques, médié par Internert, Université Montpellier III, 2007.

EL HADDADY, Karim, Philosophie de la guerre ; à la recherche d'une paix universelle, Editions Edilivre, Saint- Denis, 2020.

EL HADDADY, Karim, Lettre à une femme laïque, Editions Edilivre, 2018.

مقالات

عبد الله موسى، إشكالية العقلانية العربية في الفكر العربي المعاصر، دراسة في أعمال محمد عابد الجابري، إنسانيات،.2001

رياني المصطفى: الفكر المغربي المعاصر وحتمية النقد المزدوج، أنفاس بريس، الأحد 23 فبراير 2020.

أحمد الفراك، استشراق "أرنست رينان" بين الفكراوية والخوف من مستقبل الإسلام. مجلة منار الإسلام، 2017.

الفلسفة والفكر فض للإشكال المفاهيمي! الحوار المتمدن-العدد: 1438 – 2006.

أ. نور الهدى، حلاب، المنهج الاجتماعي في النقد: نشأته وخصائصه، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد 48، 2010.

نسيبة تامة، المعرفة، سلاح المستشرقين الجدد. مدونات الجزيرة.2017-07-26.

الفلسفة والفكر، فض للإشكال المفاهيمي، هاني نسيره-الحوار المتمدن، العدد22/1 2006. .

رجاء محمود مريم ومنيرة عبد الله الشمسان، الأفكار اللاعقلانية وعلاقتها بالشعور بالوحدة النفسية لدى عينة من طالبات الجامعة في ضوء التخصص والتحصيل الدراسي. جامعة الملك سعود، قسم علم النفس، أكتوبر،2017.

الفراك، احمد، استشراق رينان بين الفكراوية والخوف من مستقبل الإسلام، منار الإسلام، 21، يونيو 2018،

صالح، هاشم، مناقشات فلسفية، المعركة بين العقلانية واللاعقلانية في الفكر الأوروبي، جريدة الشرق الأوسط، 30 أكتوبر، 2000، العدد.8007.

التخطيط المؤسسي لفعل الترجمة ضروري لمعرفة الذات والاخر، مجلة المحطة، حوار مع المترجم المغربي نبيل موميد، 30 شتنبر 2021.

حسن العاصي، فينومينولوجيا شقاء الوعي، مأزق المثقف العربي، جريدة الحدث، 26، نونبر 2014.

مجلة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، مؤسسة التاريخ للطباعة والنشر والتجارة، 2014. العدد 85

موسوعات ومعاجم

موسوعة لالاند.

معجم اللغة العربية المعاصر.

سعيد، جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، 2010

وهبة مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، 2007

المعجم العربي الجامع.

مواقع الكترونية

Le monde.fr.

http://marayana.com

أفلام وثائقية

الجزيرة الوثائقية، خارج المكان، 2018.

مناظرات.

محمد عمارة وفؤاد زكرياء، أزمة العقل العربي، إدارة محمد الرميحي، القاهرة.

الكاتب في سطور

كريم الحدادي

ولد كريم الحدادي بمولاي بوعزة بالمغرب، في الأول من يناير عام 1995، وهو كاتب مغربي، حاصل على الإجازة الأساسية، تخصص دبداكتيك اللغة الفرنسية من كلية علوم التربية بالرباط وعلى درجة الماجستير ضمن نفس التخصص. صدرت له عدة أعمال بالفرنسية. عضو اتحاد الفلاسفة العرب و الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.

ملحق1

" باش نكون صريحة معاك، المجتمعات العربية، الإفريقية، المسلمة أو لا غير المسلمة...معمرهم غادي يتقبلوا باش تكون الأم "عازبة"، بالشكل لي غادي تسمع به في أوربا".

عائشة الشنا، " سلطانة"، 07، دجنبر، 2018.

صدر هذا المقال.. جريدة هاربريس المغربية. 10 سبتمبر 2019، تحت عنوان:

الحركة النسوية بالعالم العربي: ماذا حققت؟

في البداية، لا بد بأن نذكر ببعض "المفاهيم"، كي تكون توجهاتنا واضحة. أولها "النسوية" وثانيهما "النسائية". حيث أن الأولى هي عبارة عن حركة أو توجه سياسي، اقتصادي، اجتماعي، ثقافي وديني، يترأسها كل من يندد "بإفراط" بحقوق المرأة، وفي الرغبة في رد الاعتبار لها وكأنما وجد للدفاع عنها "بطريقته الخاصة" والتي تحاكي حركات أخرى" غربية" وذلك دون اعتبار أي جانب قدحي لهذه الكلمة. وتهدف مطالبها إلى تحقيق مكانة للمرأة باعتبارها فردا حرا ويتساوى مع نظيره" الرجل"، كي لا نقول "الذكر"، هروبا من دوامة التأويلات التي – شئنا أم أبينا- تفرض نفسها حتى في صفوف بعض المثقفين والعارفين.

أما "النسائية" فهي في المقابل مجموع انجازات المرأة داخل المجتمع ووجودها والدور الذي تلعبه في الساحة المجتمعية وعلى جميع الأصعدة. فالنسائية" في هذه الحالة لا تمت بأدنى صلة "للنسوية"" ما عدى في بعض رئيسيات المطالب والأيديولوجيات البدئية والتي تترأسها مبادئ المساواة بين الجنسين وحق المرأة في ممارسة حقوقها السياسية، وهي أمور قد يتم أخذها بعين الاعتبار في مكان وزمان محددان، مع العلم أنه في نفس الوقت هناك من يخل بأبسط هذه الحقوق والتي يبدو من العيب أن نعتبرها حقوقا ما دامت الطبيعة تجود علينا بها، ولله حكمة وشأن في خلقها.

بعد هذه المقدمة التعريفية، لا بد من طرح بعض الإشكاليات الحتمية: ما مدى تكامل وعقلانية المطالب "النسوية" في العالم العربي؟ وما مدى انسجامها مع السياق التاريخي والثقافي السائد في المجتمع؟ وإلى أي حد تسهم النظريات الغربية والنشطاء الجمعويين والحقوقيين الغربيين في تأثر العرب وفكرهم؟ كيف تسير الأوضاع عند الأسر التقليدية والتي لا ذنب لها في "همجية" أو

"ذكورية" أو شطط، كما يقول البعض، قراراتها، بل تعنيفها للمرأة، الشيء الذي يذكرنا" بإسراء غريب" والعديد من النساء المضطهدة حقوقهم والمسلوبة حرياتهم. كيف يواجه الحقوقيون والمجتمع المدني و" النسويون" خصوصا موجات ثنائية "الرجل" و "المرأة" وما يفرزه ذلك من جدالات وصراعات وتهاتف يصفه البعض بالاستعجالي والمعقول والضروري لأنه يخول للمرأة الحصول على نفس الحقوق التي يتمتع بها الرجل حتى وإن كان حال الرجل في ذلك المجتمع أكثر تضررا من المرأة أو يعيشان نفس الظروف، ويصفه البعض الآخر بالمرفوض والمضلل والثانوي وغير الضروري في ظل وجود شريعة إسلامية سهرت على الجمع بين، ليس فقط الرجل والمرأة، بل بين البشر أجمعين؟ كما كان للمرأة نصيب من الحديث ونصيب من الثناء والحب والمركزية في مستقبل الأمم.

من الواضح إذن أن المجتمعات العربية أصبحت تحاكي في العديد من مجالات الحياة العامة، المجتمعات الغربية، وذلك لأسباب يربطها البعض بالتاريخ الأسود والمأساوي الذي سببه الاستعمار الأجنبي لهذه المجتمعات، بينما يدعي البعض الأخر أن هذا الاستعمار كان له الفضل في خروج هذه المجتمعات من مرحلة كانت ستكلفها الكثير، ويعلق آخرون مرددين: "تلك نتائج العولمة" ووسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي و "الديب ويب" و...

ليس لأحد الحق في منع التواصل بين الشعوب و الثقافات، إنما له الحق في منع انتشار الأفكار الخاطئة، الانتهازية، الرامية للعنف أو المحرضة عليه، الدغمائية، القطعية التي تحول دون تحقيق التعايش و التعاون الذي من المفترض أن تتصف به العلاقات بين "كل الشعوب." و إن ما يلطخ سمعة هذه الحركات " النسوية" في 'العالم العربي" هو ليس فقط عدم تماثل السياق الاجتماعي و الثقافي و الديني في المجتمعات العربية مع مطالب النسويين ب"فرنسا" ، ب"الولايات المتحدة الأمريكية" أو "بريطانيا" على سبيل المثال، إنما ميل بعض هذه الحركات ميلا نحو الوقوف جنبا إلى جنب مع النساء ذوات القليل أو الكثير من الشهرة و اللواتي ساعدتهن الظروف في الخروج خروجا صريحا، معترفات بذلك عن رفضهن ، استيائهن أو تعرضهن للعنف أو التعنيف جسديا كان أم نفسيا، بينما تظل /فئة من النساء و نخص بالذكر النساء القرويات، سكان البوادي و الجبال و البعيدة أصواتهن عن محطات الأقمار الاصطناعية و القنوات التلفزية، بل حتى "وسائل التواصل الاجتماعي" لا تسدي أي خدمات إنسانية للنساء المتضررات، إذ لازلن- و هو أمر يؤيد جزئيا مشروعية نشأة "الحركات النسوية "في مفهومها الشامل- يعانين

الفقر و القهر و التهميش و مشكل الأمية الذي- بالرغم من المجهودات المشهود لها- لازال يعرقل عجلة النمو الفكري و الاجتماعي في المجتمعات العربية، الإسلامية، أمور تعرقل وصول أصوات هذا الصنف من النساء إلى الرأي العام و تجمد كل محاولات النجاة أو الهروب حتى. و هذا الوضع – أي تعدد المرجعيات المعتمدة كذريعة أو مبرر لنشأة الجمعيات النسوية و كل أشكال الدفاع عن حقوق المرأة و المطالبة بتحريرها و دعمها ومساعدتها للتثبت بحقوقها و عدم الاستسلام و ما إلى ذلك... كلها شعارات هدفها الظاهر إعادة الاعتبار للمرأة، و هدفها المخفي مخفي له جذور "فلسفية" ، ليبيرالية" ،"تحررية"- يبرز بجلاء و وضوح تامين أن الهدف من وراء كل هذه الأصوات المنددة و المدافعة عن "الأنثى" ما هي إلا سعي مستتر وراء تحقيق مطالب ذات بعد منفعي، سواء كان شخصيا أو مؤسساتيا أو ايديولوجيا داخلياً أو خارجيا.

في المقابل، يضفي هذا التنوع في المرجعيات طابعا "ثانويا" يميل نوعا ما إلى التجديد و البحث عن سبل أكثر نجاعة و فاعلية لتمرير أيديولوجيات "تحريضية"، داعية إلى التحرر و الثورة على التقاليد و الأعراف، بل حتى على ما ماجاءت به الشريعة الإسلامية التي يصفها البعض بالقصور و يدعي البعض الآخر انه "أكل عليها الدهر و شرب"، و هي التي لم تدخر أي جهد في الإقرار مرارا و تكرارا في "النص القرآني" و "الحديث النبوي الشريف" بحقوق المرأة و مكانتها الهامة و المحورية داخل هذه المجتمعات، و ذلك دون إهمال أو إقصاء الرجل و نبذ الدور الرئيس الذي من المفروض أن يلعبه "التكامل" الايجابي- كي لا نقول "المساواة" و ذلك نظرا لاستحالة هذا المطلب المجحف و الذي لا تتماشى بنوده مع الخصائص المميزة طبيعيا بين الطرفين- المبني على الحوار و التواصل البناء و المبني على" تربية" و "تعليم" محددة ركائزهما و أهدافهما و برامجهما بدقة تراعي كل جوانب الحياة في مجتمع إسلامي منفتح و متفتح على الثقافات و المتماشي مع المبادئ و "القيم الكونية" و هي تماما رسالة الدين الإسلامي.

أما القول أن "المجتمعات العربية، الإفريقية المسلمة أو غير المسلمة ،ستظل تنظر مثلا لقضية " المرأة العازب" بنوع من الرفض، التعصب ،اللوم و كل ما يترتب عن ذلك من أفكار "رجعية"، تقوم على الإفراط في أحكام القيمة و اللجوء إلى لغة تزيد الطين بلة و تزكي التنافر و التباعد و المحاكاة، فذلك ليس إلا قصورا و عجزا في أوساط المثقفين و العارفين بالدين و المربيين و الجامعيين و الأسرة عن تعريف "النسوية" و التطرق لها بجدية و عقلانية.

في ظل تآكل البنيات التربوية – أقصد الدور الذي أنيطت به كل المؤسسات الساهرة على "التنشئة الاجتماعية" في العالم العربي- لا يمكن حل هذا المشكل المفتعل و الذي من المحتمل أنه سيظل حبيس الأوراق و المحاضرات و المحافل الدولية.

ملحق 2

نشر هذا المقال على مدونة زوايا في الأول من مارس 2020

جالسٌ.. في أقصى الوسط. على يَميني يوجد كأس ماء، هاتف، بطاقة تعبئة، حاسوب، هذا الذي وهبتني لَوْحَتُه الحروف، كتابَيْن: "روح الحداثة"، هكذا عنون ذ. طه عبد الرحمان كتابه، وما تحت العنوان كلام آخر. لقد كتب: "المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية". هكذا عنوَنَ الكتاب الأول وقد كُتِب العنوان العريض بخط أحمر كبير. بينما الثاني، فصغير خطه وأسود لونه. كتابٌ آخر عنوَنه حميد سمير: "نموذج الحداثة وما بعدها في الفكر العربي الحديث"، وهي دراسة نقدية تتأرجح صفحاتها بين القديم والحديث بغرابةٍ تُثير الدهشة.. وحذائي الأصفر هنالك: الأول في حالة عادية والآخر منبطح، كأنه حذاء جندي فارَق الحياة... والباب أمامي مباشرة، مغلق، والستار مُسْدَلٌ كذلك، أبيض طويل، لا تتماشى هيئته وهيئة الباب البُنّي الخشبي. وعلى اليمين مباشرة، مذياع "كلاسيكي" منفصلةٌ أجزاؤه، أسود اللون، لم تعد له قيمة، مغطّى، وكأنه لا يجب أن يظهر. وما فوق المذياع تلفاز وما فوق التلفاز سقف. وعلى اليسار تَحْتَمِي بعض الكؤوس والصحون والوثائق المهمة، وراء الزجاج الذي أغلقت نوافذه بإحكام. إنها أزمة الحداثة العربية، أشعر بها، وألمسها في كل وقتٍ وحين، وفي كل شيء. نحن أصبحنا نرمي بالقديم جانباً أو في سلة المُهملات، ونخصّص لما أنتجَتْه المصانع الغربية أحسن مكان بـ" الصالون"؛ أو كما قال "شكري عياد". نحن لم نستطع للتحديث سبيلا من دون تبني النموذج الغربي – أقصدُ الأوروبي والأمريكي تحديداً. بينما كان يجدُر بنا منذ البداية الوعي بالحرية. نحن لم نفهم مفهوم الحرية إلا بطريقة أحادية المعنى، رِجْعِيّة البُعد. لقد أصبح العرب يطالبون بالحرية كلما أتيحت لهم الفرصة، فالتيارات النسوية –على سبيل المثال- المتأثرة كثيرا بالتيارات الغربية، التي -هي الأخرى أصبحت تخضع للنقد القوي من طرف المفكرين الغربيّين المعاصرين- أكلَ عليها الدّهرُ وشَرِب. و" قد ارتفعت دعوات وأصوات من داخل الحضارة الغربية وهم أهلها والعارفون بأسرارها وخباياها، تدعو إلى تصفية النموذج الغربي من سيادة العقل والعلم الذي تحكمه قوانين المادة والتجريب الأمبريقي، ومن سيادة القيم المادية المسيطِرة عليه، قيم السوق ورأس المال... والتشرذم والتراجع عن القيم الروحية مما أوْصَل الحضارة الغربية إلى أزمة (...) أزمة ذاتية شعورية"، يقول حميد سمير. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على التفسير الأحادي الذي نهجه الغرب لفهم مفهوم

الحرية. ولعل هذا التفسير مبني أساسا على التاريخ الثْيولوجي -حين كانت الكنيسة ورجال الدين يسيئون، بحجة الدين، إلى المواطنين- لأوربا على سبيل المثال. وبالتالي، فلا يمكن أن يكون وضع ما بعد الكنيسة قطيعة زمنية مع الماضي، أي مع الكنيسة نفسها. وإلّا ففي ذلك دلالة وتعبير عن وضع حد للتأثير السلبي للماضي على الحاضر، فيسهل بذلك التقليد، أي منع العقل من العمل وفقا لمنطق مغاير لما يعتبره العقل الآخر غير عادي وخارق للمألوف. لِمَ نخضَع –وباستمرار- لِمَا هو لا يخصّنا تاريخيا وثقافيا؟ هذا هو التساؤل الذي- يصاغ بطرق لغوية مختلفة وتتميز كل طريقة بلمسة فلسفية أو جمالية تضفي عليها نوعا من "الجديد" - يطرحه المفكرون العرب منذ الأزل. الغريب في الأمر، هو أن هذه الطرق تتبنى منهجيات لا تمتُّ بصلةٍ لنطاقها، وهي بالتالي تبدي اهتمامها بالجديد أو لنقل "الحديث"، وهذا في حد ذاته خضوع لقوى خارجية تعدّ "جديدا" في سياقات أخرى، مجالات أخرى. "كالمناهج البنيوية وما بعد البنيوية"؛ التي مر عليها الزمن في الغرب ولا يزال المثقفون العرب يستقبلونها بحفاوة كما جاء على لسان شكري عياد. لماذا هذا الهوس بالتقليد؟ إلى متى ستظل العقلية العربية "نقلية" يغيب فيها الإبداع، كما قال حليم بركات في إحدى "المؤتمرات الفلسفية"؟ في الحداثة العربية...

ملحق 3

"الوضوح في ثنايا الغموض."

" نشر هذا المقال على موقع رقيم في الأول من أبريل، 2020."

نقصد بالوضوح تلك العملية غير سهلة المنال الذي يقوم بها الإنسان "العاقل" في التفتيش والبحث المنظم والتنقيب عن تفاصيل "الشيء"، "الظاهرة" أو "الفكرة". كأن تبحث في مجال "علوم النفس" أو "التربية". حيث يفضي البحث في مجال إلى التعمق في فهمه حتى أن قدرة الباحث على الفهم تلعب دورا مركزيا ومبدئيا في رغبة المرء في معرفة ما يبحث عنه حقا وفعليا. ومن هنا يتضح لنا أن الإنسان فعلا، دائم البحث. وهكذا نخلص إلى القول إن "الغموض" هو ما يميز "الوجود". هذا من جهة فلسفية تجريدية.

من جهة أخرى-لغوية- فإن "الوضوح" هو نقيض "الغموض". فنقول إن هذا السر غامض أو أن هذه النظرية واضحة، دلالة على أن اللفظين "متناقضين" نوعا ما. إلا أن النقيضان لا يمكن تفرقتهما وفقا لحتمية أو أخرى. إذ لا مجال للضرورة هنا. فبدون الخير لن يوجد الشر. ولولا الليل لما كان للنور معنى، وهلم جرا.

ف"النور" حبيس "الظلام"، سجينه. الظلام اختطف النور وملكه امتلاكا. أضعفه إلى درجة أنه لولا بزوغ الفجر، لما حل النور أبدا. فالنور غير مستقل تماما، وإن استقل ضاع في غياهب "العدم"، صار سرابا، بل قد يشمل آراء وأطروحات فلسفية تجريدية، ستظل مثالية إلى حد المستحيل.

والظلام باعتبار جبروته والرعب الذي يسببه لكل متأمل، والشعور ب "اليأس" و "الضياع" الذي يسببه لكل منعزل، منكمش، معتكف عن الحياة، لا عظمة له إن غاب النور. لعل أرقى ما قد يكتب في موضوعه، أو يتصور عنه، أو يرسم أو ينحت، سيظل حبيس الخيال ومواسيا للإنسان. فقط. كما هو الشأن بالنسبة "للفن". أو كما قال "كامو":

« Si le monde était clair, l’art ne serait pas »

" لو كان العالم واضحا، لما وجد الفن"

هكذا يفرض علينا التناقض الاحتواء، بدلا من "الحسم" و "الرفض" والاختيار "القطعي"، "الدغمائي"، الذي لا تردد فيه. فكل واضح هو مبهم والعكس صحيح. وهذا ما أظن، وما عمل ثلة من ذوي الألباب على توضيحه، وما وضحوه، إذ كان منهم من أصيب ب "الغلو"، وكان من لم ينفذ سوى إلى زبد الجوهر، ما فاضت به المعاني، أما ما استقر في القاع وشكل الأساس واللب، فإنه صعب المنال، أي غير واضح، ويتطلب جهدا فكريا، مصداقا لقوله تعالى":

" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ – *آلعمران-190."*

ثم إن "التفكير فريضة إسلامية"[227]، كان أن حث عليها "القران الكريم" و "الحديث النبوي الشريف" مرارا وتكرارا. وإن اتخذنا موقعا داخل الثقافة العربية الإسلامية ونحن كذلك، فذلك يعني أننا خضعنا لقاعدتين. القاعدة الأولى إلهية، وهي التفكير والتفكر في خلق الله. والثانية وهي وضعية، مفادها أن المثقف لا ينسب إلى ثقافة إلا إذا كان يفكر بواسطتها ومن خلالها كما قال الدكتور الجابري وهي بالنسبة له "قاعدة عرفية".

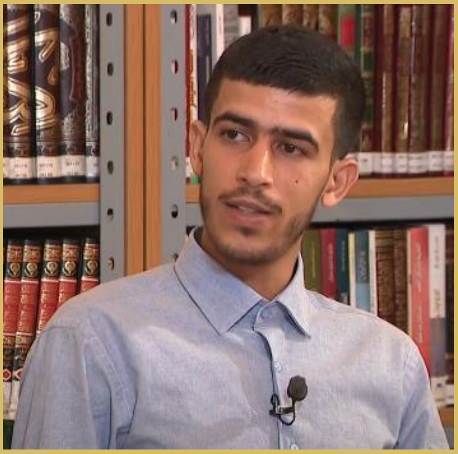
لكن يبدو أن هذه القاعدة- بالرغم من أبعادها الواضحة، والهادفة إلى وضع شروط ومعايير للمثقف، باعتباره فاعلا نشيطا في كل أمة أو مجتمع، بحيث هو الذي يمثلها ويبحث في تاريخها ويواكب تطورها ووجوده الفعلي داخل ثقافته الأم والتفكير بناء عليها وفيها، ليس، بكل تأكيد هو التفكير فيها من خارجها. لكن، وبناء على "المعقول" لا على "العقلاني"، فمن القائم أن يكون الفعلين متطابقين ومتماثلين. بحيث من القائم أن يكون للتفكير من الخارج بثقافة "أم" وفيها، أكثر وضوحا وتعمقا وأصالة في معالجة الأمور. أفضل بكثير ممن يفكر داخلها وفيها وبواسطتها. وهو آمر مستحيل. فالباحث مثلا، لن يستغني عن مرجع علمي كبير حول الجراحة المتطورة، لمجرد كونه لم ينتج داخل الثقافة الأصل. سيكون ذلك بدون شك غلوا. فلجوء الباحث مثلا إلى مرجع أجنبي حتى يصف ظاهرة اجتماعية أو أخلاقية في مجتمعه، هو لقاء مباشر وصريح بالثقافة الأجنبية نفسها واستهلاك لمنتجها.

[227] و قد خصص الدكتور محمود عباس العقاد كتابا حول هذا الموضوع، كتاب موسوم بعنوان: "التفكير فريضة إسلامية.

الفهرس

كريم الحدادي

ولد كريم الحدادي بمولاي بوعزة بالمغرب، في الأول من يناير عام 1995 ، و هو كاتب مغربي، حاصل على الإجازة الأساسية، تخصص دبداكتيك اللغة الفرنسية من كلية علوم التربية بالرباط و على درجة الماجستير ضمن نفس التخصص. صدرت له عدة أعمال بالفرنسية. عضو اتحاد الفلاسفة العرب و الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.



منشورات الطيوب
سلسلة الكتاب العربي